الرضوة

رواية من ثلاثة أجزاء

الجزء الأول

الروضة المرضية

أحمد عليوة

الرضوة / رواية من ثلاثة أجزاء
الجزء الأول
الروضة المرضية
أحمد عليوة
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

OKTOB NET

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة , ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٩٩٩٥٤
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٥٥ - ٠١

الرضوة

رواية من ثلاثة أجزاء

١

الروضة المرضية

أحمد عليوة

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى

نيمالا لج

و

يريس ملا حور



الفصل الأول

المروضون الثلاثة

"أسرع يا أحمض! ستبدأ الخطبة!"

انتبه أحمض وخرج من حالة التأمل، وبساقين دقيقتين ركض نحو المسجد، يتقافز مثل الجراد فوق شقوق الأرض الجرداء. فأحمض يعيش في أرض آل حميض، والفقر سمة المكان، حيث تنعدم أسباب حياة الإنسان. فآل حميض بشر ظلوا على قيد الحياة، برعاية وعناية من بيده الموت والحياة. هؤلاء أناس يفتقدون كل شيء، بل إنهم يفتقرون إلى الجلد اللازم لتغطية هياكلهم العظمية، فترى التشققات في أنحاء الأبدان، في حيلة يائسة للإكتفاء بالجلد الرمادي المتاح. بل إنني أعدك أنك إن عددت تلك الضلوع البارزة، لوجدتها ناقصة. إن هؤلاء قوم، إن أرادوا الموت يوما، ما وجدوه.

ولكن بؤس الحياة، لم تمنعهم من إقامة الصلاة.

فدخل أحمض المسجد ليشهد صلاة الجمعة، فهُم رغم فقرهم، استطاعوا الحفاظ على سبعة أيام في الاسبوع، أهمها يوم الجمعة، حيث يجتمع الناس في مسجد الأرض لسماع خطبة الحاج عوض، ثم يصلون ويتزاورون.

والمسجد بلا جدران أو أبواب، وإنما مجرد خليط من جريد النخل وبقايا أشياء كل وظيفتها توفير بعض الظـــل، وتحديـــد المكان. وهذا المسجد على بساطته، واحة في وسط الرمضاء.

جلس الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، وهذا طبعا مجاز، لأن أرض آل حميض لا يوجد فيها طيور، بل إن الطيور تخيف أفراخها بهذا المكان لكي يتأدبوا في أعشاشهم فوق الأشـــجار الخضراء.

وقف الحاج عوض أمامهم يخطب فيهم بحماس ويـــذكرهم بيوم الدين، وعيون الجميع متعلقة به، إذ رفع يـــده الغليظـــة، ارتفعت الرؤوس والعيون الغائرة معها، وإذا اهتز جسده القوي ليؤكد كلمة، تراهم جميعا يهتزون بهياكلهم الضعيفة اهتـــزازا كأنهم شعلة شمعة، أو ريشة طير في مهب الريح. فالحاج عوض الحميضي زعيمهم، وكان يتفرد بينـــهم بالبـــسطة في العلـــم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء.

أنهى الحاج خطبته ثم دعا وأمّ الناس في الـــصلاة، وعنـــدما انتهى، جلس في مكانه، وأتاه الجميع فردا فردا يسلمون عليه، فيسأل عن أحوالهم ويطمئن عليهم، وجاء الأطفال بعد الكبار، يقبلون يده وينحنون برؤوسهم، ليمسح عليها بيـــده الغليظـــة الحانية.

يتكرر هذا المشهد كل أسبوع، إلا أن هذا اليوم كان غريبا عما سبق من أيام الجمعة. فوسط هؤلاء الجالسين، كان يجلس ثلاثة غرباء. والأمر لا يحتاج إلى خبير ليعرف أنهم غرباء، بل إن شذوذهم في وسط آل حميض لا تفسير له إلا أنهم غرباء. فأحجامهم، وثيابهم ولون بشرتهم ونضارتها جعلتهم كلآلئ وردية منثورة وسط حبات الرمال الرمادية.

وجاء هؤلاء الغرباء الثلاثة ليسلموا على الحاج عوض كذلك، وقال كبيرهم "بارك الله فيك يا حاج، كانت خطبة وردية!"

رد الحاج ويده في يد أحدهم، "أهلا وسهلا بكم،" وتفرس في تلك الوجوه الغريبة، ولكنه لم يستطع قراءتها، و لم يطمئن.

***

أقام الغرباء خيمتهم بجوار المسجد ووسط سائر الخيام، ونصبوا أمامها منضدة بسيطة، هي في أعين الحميضيين عظيمة، فكيف يجتمع كل هذا الخشب في مكان واحد؟! وكان الغرباء، بعد أن يصلوا صلاة الظهر في المسجد، ينشرون على هذه المنضدة أشياء عجيبة، فيوما ينشرون فوقها نعالا، ويوما آخر حلوى، وفي يوم ثالث ثيابا جديدة؛ لم تكن هذه الأشياء للبيع، وإنما للتوزيع على الحميضيين كهدايا بسيطة تعبر عن مشاعر

الحب والتكافل. وفي اليوم الرابع لم يوزعوا شيئا ماديا، وإنما وزعوا ضحكات ودموع، فأقاموا فوق المنضدة مسرحا للعرائس، وحكوا ملحمة شعرية مفعمة بمعاني النبل والفداء وإن لم تخل من نكات، فترى الحميضيين واقفين وأعينهم متعلقة بتلك العرائس، إذا ما تحركت تحركت أعينهم، وإذا ما ضحكت ضحكت أعينهم، وإذا ما استشهد البطل فاضت بالدموع.

وفي اليوم الخامس وزّعوا على الناس أطباقا من حبات بيضاء ساخنة ملتصقة ببعضها، وعلّموهم، "هذا اسمه أرز."

أما في اليوم السادس، فلم يوزّعوا شيئا، وحار الناس، ووقفوا أمام خيمة الغرباء بعد صلاة الظهر ينظرون خروجهم، حتى خرج صغيرهم قائلا: "لقد ذهب صاحبَيّ إلى الروضة، لإحضار هدايا الغد، فغدا يوم الجمعة! ولابد أن تليق الهدايا بأهم الأيام!"

وانصرف الناس من أمام خيمة الغرباء يتخيلون هذه الهدايا اللائقة بأهم الأيام. وسهر الحميضيون تلك الليلة، فإذا مررت على خيامهم، تراهم يتهامسون بينهم، يتنبأون بما سيوضع على المنضدة في الغد. والأطفال مستلقون على الأرض، يحلمون بتلك المنضدة، وكأنها مائدة من السماء.

وقام الحميضيون يوم الجمعة وتجمعوا أمام الخيمة، ولكن الغريبَين لم يعودا بعد، ودخل وقت صلاة الجمعة، وخرج الحاج عوض من خيمته إلى المسجد مباشرة، وبدلا من أن يهرول الناس ليجلسوا أمامه كما هو المعتاد، صار كل حميضي يعقد مقارنة في ذهنه، "الخطبة... المنضدة... الحاج عوض... الغرباء... صلاة الجمعة دخلت بالفعل... الغرباء لم يأتوا بعد..." ثم يتوصل إلى أن الأصح هو أن يذهب إلى المسجد، فقد حان موعد الصلاة، أما موعد الهدايا فلم يحن بعد.

ولاحظ الحاج عوض هذا التلكؤ في الحضور، والتردد البادي على وجوه الناس. وبدأ خطبته كما هو معتاد، ولكن الناس لم يستجيبوا كالمعتاد. العيون الغائرة لا تتعلق بالحاج، وإنما هي بارزة تتلفت حولها لترى إذا ما أتى الغرباء من بعيد. والآباء يمسكون بأطفالهم كي لا ينفلتوا من جنبهم، ويلفتون وجوههم تجاه الحاج لينتبهوا إلى كلامه، ولكن الأطفال مشغولون بكلام لا يسمع، وبنقاش مفرداته نظرات وحركات الشفاة الصامتة:

"أقول لك حلوى!"

"لا... لقد وزعوا حلوى من قبل! إنما سيوزعون عرائس!"

"ولما لا يوزعون حلوى مرة أخرى؟"

وفجاءة أنفلت طفل من جوار أبيه وقفز خارج المسجد، فقد رأى شيئا آت من بعيد، أيقن أنه الغربيان. وأحكم كل أب قبضته على أبناءه، فالتحرك أو الكلام أثناء الخطبة خطيئة، ورغم أنه لم يحدث من قبل، إلا أن القياس يقتضي أن الخروج أثناء الخطبة كبيرة من الكبائر!

كان الحاج يرى كل هذا وهو يخطب، وشعر وهو يقف أن سحبا داكنة قد تراكمت في السماء، يرى الناس فيها الغوث والنجاة، ويرى هو فيها الغرق والهلاك.

أوجز الحاج في خطبته. أوجز لا لفقر في الكلام، وإنما رأفة بالأطفال وبالآباء القابضين عليهم. ودعا ثم وقف وأمّ المصلين في ركعتين خفيفتين. وما أن سلّم، إلا وكأن المسجد الذي لم يكن له جدران قد انطلق منه أسراب الجراد الذي تقافز من أركانه إلى الخارج.

حاول الآباء أن يحكموا أولادهم ويلملموهم قبل الهروب، ولكن الأطفال انتهزوا الثواني القليلة بين انتهاء الصلاة وعودة قبضة الآباء ونجحوا في الفرار إلا قليلا منهم. وتجمع الآباء حول الحاج يسلمون عليه ويعتذرون له سوء خلق أبناءهم ويقسمون بأنهم سيؤدبونهم ما أن يخرجوا إليهم. ومن كان حظه أن يعود في قبضة أبيه بعد الصلاة، سيق ليقبّل يد الحاج وانحنى برأسه

ليستقبل المسحة المباركة، ثم نظر إلى أبيه نظرة مفادها أنني قد استوفيت جميع الشروط فأطلقني! ثم ينفلت من القبضة ويلتفت ويقفز كجرادة جائعة لتلتحق ببقية الجراد المنتشر.

والحاج لا يعلق، وإنما يفكر في هذه البلية التي ابتلوا بها. ثم خرج الآباء وتجمعوا مع أبنائهم ينتظرون وينظرون، ماذا سيوزع الغرباء؟

***

لم يكن الحاج وحده الذي بدأ يقلق، فقد بدأ العديد من الرجال يشكون إليه مشكلات مع أولادهم وزوجاتهم، مشكلات أرجعوها إلى الغرباء وأعاجيبهم المتجددة. إن آل حميض على هُزالهم أهل كرم وجود، وأرض الحميضيين على فقرها، ترحب دوما بالمارين عليها، والغريب فيها قريب مادام بينهم، فلم يكن عجيبا أن يتسع صدر الحاج للغرباء، وإنما العجب كل العجب أن يتصرف الغرباء على هذا النحو ويحدثوا مثل هذه المشكلات والقلاقل بينهم. واستشار الحاج أبناءه وبعض أصحابه، وأجمعوا على أن الأمر جد وما هو بالهزل، وأنه لابد من الاجتماع بالغرباء وحسم الأمر معهم.

***

"أسرع يا أحمض! سيبدأ الاجتماع!"

انتهى أحمض من إصلاح نعله الذي أهداه إليه الغرباء ولبسه في رجله وخرج يتقافز مع أخيه، ووصلا إلى المسجد مكان الاجتماع الكبير. فعادة آل حميض أن تناقش الأمور الهامة علانية أمام الجميع.

دخل أحمض فوجد الحاج عوض يهجم على الغرباء بسؤاله: "لماذا جئتم إلى أرضنا؟!"

رد كبيرهم في ثقة: "جئنا نخرجكم من خشونة الأرباض إلى وَرَادَة الرِياض، ومن وَضَاعَة الأرْيَضَة إلى رُقِي الريادة!"

حاول الحاج جاهدا إخفاء دهشته وحقيقة أنه لم يفهم كلمة واحدة مما قيل، فكرر هجومه بأسلوب آخر وسأل بصوت أعلى: "ماذا تريدون منا؟؟!!"

رد الغريب بنفس الثقة: "يا حاج، إننا لا نريد منكم شيئا، وإنما نريد لكم أشياء. نريد لكم الوَرَادِية في العيش وأن نُرَوِّض لكم هذه الأرض لتصبح رَوضة ترضيكم وترضينا وترضي ربنا!"

شعر الحاج كأن "الفهم" متحصن في قلعة منيعة لا تنهدم جدرانها، فقرر الاعتراف ضمنا بفشل هجومه وأن يطلب فتح

الباب، فنظر إلى الغرباء وهز رأسه: "يا هذا، إنني لا أفهم هـــذا الكلام! لماذا جئتم إلى أرضنا؟؟"

رد الغريب: "نحن مُرَوِّضون، نُرَوِّض أرض الأرباض البائسة الحَميضة لتصبح رياضا بهيجة وحميدة."

شعر الحاج هذه المرة بأنه رأى "الفهم" ولكن مـــن بعيـــد، فانتهز هذا الإنجاز ورد حازما: "لا نحتـــاج إلى مـــزارعين ولا لفلاحين، فعيشتنا خشنة، وأرضنا حَميـــضة كمـــا قلـــت، لا نزرعها، وإنما نرعى إبلنا إينما ظهر الكلأ، هذه حياتنا وعادتنا ونحمد على ذلك ربنا!"

رد الغريب مبتسما وبهدوء: "يا حاج عوض، لسنا مزارعين ولا فلاحين، وإنما مُرَوِّضون. لسنا هنا لنخدمكم أو لنزرع لكم أرضكم، وإنما نحن هنا لترويض الأرض وتحويلها إلى روضة."

اعترض الحاج وأشاح بيده في عنف: "يا هذا! لا نحتاج إلى رياض! نحن بدو، الأرض تعجبنا كما هي، ونحن مستغنون عن خدماتكم!"

عاد الغريب بنفس الهدوء: "قلت لك يا حاج عوض إننـــا لسنا هنا لخدمتكم، نحن مروضون، نريد أن نحوّل هـــذا الأرض إلى روضة وأن نُوَرِّد لكم عيشكم."

تعصب الحاج ونظر إلى من حوله ثم خطا خطوة للأمـــام: "ألم تفهم كلامي؟ أقول لك بدو ولا نحتاج للفلاحة، فتقـــول رياض وورد؟!"

رد الغريب متعجبا: "يا حاج عوض، ألم تسمع عن الوَرَادَة من قبل؟" ثم التفت إلى الناس وسأل: "أليس بينكم فرد واحـــد مُتَوَرِّد لنكلمه فيفهمنا؟"

سكت الجميع فليس من بينهم مُتَوَرِّد، كما أنـــه لايجـــوز الكلام دون إذن الحاج. فأردف الغريب سائلا: "مـــن مـــنكم يستطيع القراءة والكتابة؟"

فلم ينطق أحد، ولكنه رأى في عيونهم وهزة رؤوسهم أنهم أميون إلا قليلا منهم. فتابع الـــمُـــرَوِّض: "نحن جئنا لنعلمكم القراءة والكتابة، وسنقيم بينكم لمدة شهر. مـــن أراد أن يـــأتي ويتعلم فأهلا وسهلا، ومن لم يرد، فكما شاء." ثم وجّه كلامه إلى خصمه: "أيرضيك هذا يا حـــاج عـــوض، أم أن القـــراءة والكتابة ممنوعة عندكم؟"

ففرد الحاج قامته وقال بثقة: "عموما، أرضنا مفتوحة لكـــل ضيف وعابر سبيل، إن كنتم معلمين فأهلا وسهلا، فالعلم نور ونحن أمة ((إقرأ))، ولكن الترويض والـــوَرْد وهـــذا الكـــلام الفاضي لا نقبله، ولا نفهمه، ولا نريده!"

فابتسم المروض وختم الجلسة قائلا: "حسنا، نحن معلمون."

***

عاد المرَوِّضون الثلاثة إلى خيمتهم، وما أن دخلوها إلا وهتف أصغرهم منفعلا: "إن هؤلاء الأرْياض يحتاجون إلى الترْويض أكثر من الأرض، أرأيت جهلهم؟ إنهم لم يسمعوا عن الوَرَادَة من قبل! أرأيت خيبتهم؟"

رد كبيرهم وشرح كما يشرح الأب لإبنه: "أعلم ذلك، وقد شعرت أنه لا طائل من وراء الكلام مع ذلك الريِّض المدعو عوض، فهو إما غبي، وإما داهية يعلم أن لا مكان له في الروضة الجديدة، ويخشى من زوال زعامته. ولهذا رأيت أن نغير من مدخلنا ونوفر لهم فرصة لتعلم القراءة والكتابة، ثم نعرض الأمر عليهم مرة أخرى بعد ذلك. إنك يا صديقي سترى الكثير من أمثال الحاج عوض. أرْياض كَبَّل الجهل إرادتهم إلى الأرض، فلا تصطدم معهم، وإنما حاول تحييدهم والوصول إلى الشباب والنشء، افتح عيونهم على ما يفتقدونه من وَرَادية العيش ورياضة العقول والنفوس، وعندئذ سيطالبون هم بترويض أرضهم لتتحول إلى رَوضة، وسيُرَوِّضون أهلهم ليصبحوا رَوْضيين مقبلين على الرياضة والوَرَادة."

ثم ختم كلامه بموعظة بليغة: "ولا تنس أن الرفق ما دخل على شيء إلا زانه، وأن العنف ما دخل على شيء إلا شانه."

هدئ أصغرهم، وأومأ برأسه موافقا ثم رفعهـــا إلى أعلـــى
ودعا: "اللهم اجعلنا هداة مهتدين، وروّادا مروِّضين، آمين"

وأمّن معه الباقون.

الفصل الثاني

الروضة الجديدة

أحضرت زوجة الحاج عشاءه وجلست معه وأنصتت إليـــه وهو يشتكي لها حيرته وعدم ارتياحه لهؤلاء الغربـــاء. "صـــالم يقول بأنهم أتوا من الروضة البعيدة، وأنهم يريدون أن يحوّلـــوا أرضنا هذه إلى روضة مثلها."

"ولما لا يا حاج؟ أيكره أحد الزرع والخضرة؟"

اعترض الحاج: "إننا لم نطلب منهم مساعدة، وإنما يفرضون أنفسهم علينا فرضا!"

فردّت زوجته وهي تنظر إلى أعلى وتشير بسبابتيها: "رزق ساقه الله إلينا، أيرفض المرء المطر إذا ما نزل دون طلبه؟"

نظر إليها دون أن يتكلم، فنظرت إليه حانية وسألته: "ممـــا تخاف يا حاج؟"

فانفجر الحاج: "... الناس تغيرت من يوم ما أتى أولئـــك الغرباء!" ثم تمالك نفسه وتابع بصوت يبدو فيـــه الـــوهن... "أخشى عليهم من..."

"من ماذا؟"

صرف وجهه وقال: "لا أدري ..."

ربتت على ظهره وقالت ناصحة: "قم فصل ركعتين وأسأل الله أن يهديك لما فيه الخير والصلاح." نظر إليها موافقا ونفض يديه من الطعام، وقام وانتصب وقبل أن يكبّر التفت إليها وقال: "وغدا صيام!"

***

مر يومان قرر الحاج بعدهما أن يسافر إلى تلك الروضة ليراها على حقيقتها، فإن كانت ترضي النفس فلما لا نحوّل أرضنا لتصبح مثلها، وإن كانت غير ذلك فعليه أن يحذّر أهله من هذه الفتنة التي حلّت بهم، وخرج الحاج عوض من بعد صلاة الفجر ومشى غربا في اتجاه الروضة البعيدة، ووصل إلى أسوارها بعد يومين وليلة.

تسلل الحاج عوض إلى داخل الروضة ليعاين بنفسه تلك الجنة التي أعدت للمُرَوَّضين، فشعر بانقباض في قلبه من أول لحظة، دخل السوق فأصيب بالدوران، فروائح العطور والتوابل تتداخل مما يشعر بالغثيان، والناس في السوق كالأموات، لا تسمع لهم همسا، كأنهم يمشون بين القبور، المرء يقف أمام البائع، يأخذ ما يريده ويدفع الثمن ويمضي في طريقه دون فصال ولا جدال.

تقهقر ودار وخرج من حيث أتى وتلفت حوله ودخل الطريق العمومي، فرأى نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كرؤوس الشيطان، وشباب يمشون رويدا كالنسوان، ورجال يتحركون ببطئ من فرط البدانة، يلبسون ثياب وردي كالمُجَّان، ضحكات وأغان وطرب في الطرقات،... "بئس ما وعدتمونا! أردتم أن نعيش أمواتا وأن نعذب في قبورنا!"

وبعد أن كان قد نوى قضاء يوم كامل في الروضة ليدرسها عن كثب، رأى أن ما رآه فيه الكفاية، فالقصيدة أولها كفر، فلا يتوقع أن سائرها تسبيح، وبحث عن البوابة التي دخل منها، وانطلق جريا كأنه يختنق، وأول ما خرج من الروضة وقف وأخذ نفسا عميقا من هواء الأرض ثم خر ساجدا أن خرج سالما، ثم استغفر ربه وأناب.

***

عاد الحاج عوض إلى أرضه وقد أدمى قدميه طول المسير، تردد وهو يقترب من الخيام، فشعر وكأنه قد أخطأ المكان... "لا لا، المكان هو، ولكن ليس هذا هو المكان.. ما هذه الصور المعلقة في الخيام؟ أعدنا إلى الجاهلية، أم أن هذه نهاية الأيام؟ وما كل هذه الزروع الخضراء التي زرعت في أوان؟ أنسيتم أننا في صحراء وأننا بدو؟ أم استعجلتم الجنة قبل الأوان؟"

ومر بجوار المرْوَضة وهمّ أن يدخلها. كان الحاج قد وافق على أن يعلم المروضون الحميضيين لأن العلم نور كما يقولون، وسمح لهم بإقامة خيمة لتعليم القراءة والكتابة، سموها "المرْوَضة"، وأقبل عليها الأطفال والشباب إقبالا، فهي ليست خالية مثل المسجد، وإنما مليئة بالألعاب المختلفة والصور المبهرة.

وعندما وصل الحاج إلى مدخل المرْوَضة، سمع كبير المروضين يصيح: "الإرادة!" والأطفال من خلفه يرددون: "الإرادة!!"

"سر الحياة"....

"سر الحياة!"

...

"الروضة تجري" ....

"الروضة تجري!"

"من تحتها الأنهار" ....

"من تحتها الأنهار!"

...

"إن الله" ....

"إن الله!"

"يحب أن يرى" ....

"يحب أن يرى!"

"أثر رِوْضَته على عبده" ....

"أثر رِوْضَته على عبده!"

ولسبب ما، تردد الحاج في الدخول، وعاد القهقري وهو يشعر وكأنه غريب، ثم التفت مرة أخرى إلى الخيام، فوجد بعض الرجال جالسين لاهين بهدايا المروضين، إلى درجة أنهم لم يلاحظوه، أو ربما لاحظوه ولكن آثروا ما هم فيه على القيام له وتحيته. "من هؤلاء الجالسون بين الخيام؟؟ هذا ابن صالم أليس كذلك؟ ماذا أجلسه هكذا؟؟ ولماذا لم يقف لي عندما رآني أمر؟ أين عمائم الرجال؟ وما هذا الشعر القصير؟ كيف يمشي عماض هكذا برأس كرأس البعير؟"

ووقر في قلب الحاج أنه يجب إعادة الأمور إلى نصابها، فعزم على جمع الناس لاستشارتهم فيما يفعلون، وعاد إلى خيتمه والمرْوَضة من خلفه تردد: "الإرادة .... سر الحياة"

***

وقف صالم في المسجد بين كبار الحمايضة وقال: "يا جماعة، إنما جاء هؤلاء ليخرجونا من أرضنا!"

فرد عليه عماض مستنكرا: "من قال هذا؟؟ وهل فيها شيء ليخرجونا منها؟ وهل فعلنا لهم شيئا ليخرجونا؟ إنما جاءوا لِيُرَوِّضوا الأرض من أجل وَرَادَتنا!"

التفت إليه صالم في عنف وقال: "ما هذا الكلام؟ لعلك ذهبت إلى خيمتهم! أرأيتم؟؟ إنهم يسلطون أبناءنا علينا!"

فأهمل عماض خصمه والتفت إلى الحاج عوض وكان جالسا يراقب الحوار، "يا حاج عوض، إنهم كما يعلمونا القراءة والكتابة، يريدون أن يعلمونا رياضة الأرض لكي نستفيد منها. أليس من الأفضل أن تكون هذه الأرض الجرداء روضة خضراء؟"

رد عليه الحاج: "نحن بدو ولا نعيش على الفلاحة!"

فرد عماض: "يا حاج، ومن قال أننا لن نظل بدوا؟ سنصبح بدوا في روضة. من أراد أن ينصب خيمته فلينصبها في الروضة، ومن أراد أن يرعى إبله، فليرعها في الروضة، لا تعارض يا حاج عوض."

عاد صالم بلهجة واثقة: "يا جماعة أنا غير مطمئن لهؤلاء الغرباء، لابد أنهم سيستفيدون شيئا من كل هذا!"

فأهمل عماض خصمه مرة أخرى وقال موجها كلامـــه إلى الحاج: "سيستفيدون رضا الرب ورضا الضمير يا حاج."

نظر إليه الحاج عوض وهمّ أن يقول شيئا ولكنه ســكت. سكت تحت حمل العقود التي أضيفت إلى عمره منذ أن بدأ هذا الاجتماع، لقد انفلت من يده زمام الأمر... ووضع رأسه بين يديه وقال لنفسه... "لقد قلبوا علينا أهلنـــا، لقـــد وعـــدوهم بالرياض والأنهار..."

فتدخل رجل آخر وقال: "الحاج عوض محق! وأنتم ســـذج وبلهاء! إن هؤلاء يريدون أن يغيروا طريقـــة عيـــشنا لنـــصبح مثلهم، ونضرب بتراث الأجداد عرض الحائط. لقد عاد ابـــني بالأمس من عندهم يقول لي أنهم ما جاءوا إلا لترويضنا! إنهـــم ينظرون إلينا كدواب تحتاج للترويض! إنهم يريدون تـــدجيننا وإذلالنا وتطويعنا لنكون كما يريدون هم، لا كما نريد نحـــن! إنهم يريدون تحويل أرضنا إلى روضة لأن رياضهم ضاقت بهـــم ويحتاجون إلى غيرها. سيزرعون الأرض ثم يسخّرونا لنعمل فيها عبيدا لهم!"

اعترض أخو عماض الأصغر مشوّحا بيده: "هـــذا كـــلام فارغ! إن الرياض لم تضق بأهلها ويعيـــشون حيـــاة وَرْديـــة مُتَوَرِّدة، ومعدلات الوَرَادية عندهم تفوق الخيال. المروضون ما أتوا لأنهم يحتاجون إلى أرضنا، وإنما لأنهم يعلمون أننا نحتاج إلى ما عندهم!"

اعترض صالم، "ومن قال إننا نحتاج إليهم؟؟"

فأكد عماض، منصرفا عن صالم وموجها كلامه إلى الحاج، "بل نحتاج، ولكن لا نعلم أننا نحتاج، لأننا لم نرى ما هو متاح لنعلم إذا ما كنا نريده أم لا! فلنرى ما عندهم ثم نختار!"

تعصب صالم بسبب هذا الإسلوب المستفز، فكيف يهمل عماض وجوده هكذا ويرد على كلامه دون أن ينظر في وجهه؟؟ فأمسك صالم بثوب عماض وهزه وهو يصيح: "والله لم يبق إلا أن تنطق الرويبضة في أمر العامة! والله ما أراك إلا تركت تراث أجدادك وجريت وراء أوهام الغرباء!!"

هنالك التفت عماض إلى صالم وحرر ثيابه من قبضته ونظر في وجهه وقال بثقة: "وماذا لو تركت تراث الأجداد؟ أولو جاءك مُرَوِّض بأهدى مما كنت عليه، أتعرض عنه وتقول إنا وجدنا أجدادنا على أُمَّة وإنا على آثارهم مقتدون؟؟ ما هذا الجهل والتعصب؟!"

احمر صالم وصرخ: "أنا جاهل أيها السفيه؟؟!!"

وانقسم الناس إلى فريقين، فريق يرى المروضين أبالسة، جاءوا ليفسدوا عليهم دنياهم وآخرهم، وفريق رأى فيهم ملائكة، كأن الله أرسلهم ليخرجوهم من ظلمات الجهل إلى نور الرياضة. وسرعان ما لاحظ الجمع هذا الانقسام، وانجذب كل امرء إلى حزبه.

ووقف الحاج عوض ومن خلفه فرقته يقول: "لقد قررت أن نخرجهم من أرضنا قبل أن يشعلوا نيران الفتنة بيننا!" فرد زعيم الفرقة الأخرى: "بل يجب أن نبقيهم، ليحولوا هذا الجحيم إلى روضة!!"

وارتفعت الأصوات، وما كان لرجل من قبل أن يرفع صوته فوق صوت الحاج، ولكن الحال تبدل، فسبحان مغير الأحوال.

وعرف الحاج عوض أن هذه لحظة فاصلة وأن مستقبل الأرض ومن عليها ستتحدد في هذه اللحظات التالية، فاستجمع كل ما أوتي من عزم وإصرار ونظر نظرة في العيون، نظرة سبرت أغوار الناس، ولملمت هيبته التي تبددت في قلوبهم ثم انتزعتها ومسحت بها على وجوههم، ثم رفع قبضته نحو السماء وصاح صيحة قرعت الآذان وزلزلت الأبدان، "تالله ليخرجن من بيننا!! ... أو ليقتلن بأيدينا!!" وضرب بعصاه في الأرض ضربة طمست الشك من القلوب وفجّرت حمية القبيلة في العروق، فخرجوا على قلب رجل واحد في ظلمة الليل، إلا قليلا منهم، تضيء المشاعل طريقهم، ليطردوا الغرباء!

***

صاح الحاج عوض بصوت جهوري: "أخرجوا من أرضنا فإنكم لم تزرعوا سوى بذور الفتنة بيننا!"

خرج إليه كبير الغرباء متحفزا وقال: "يا حاج عوض قلنا لك من قبل إننا لسنا مزارعين وإنما مروضون، وسنروض هذه الأرض وكل ريِّض يقف في طريقنا! إننا لسنا هنا لنأخذ شيئا، وإنما لترويض الأرض ونشر الرياضات بينكم ثم سنترككم وشأنكم بعد ذلك. لسنا محتلين، وإنما مروضون!"

فصاح الحاج مهددا: "اخرج من بيننا وإلا أحرقتك ومن معك ومن خلفك!"

رد الغريب متوعدا: "تحرق من أيها الريّض الوقح؟! ارجع إلى خيمتك والزم حدودك!"

هنالك هوى الحاج عوض بعصاه على رأس الغريب فسقط على الأرض من فوره، وأشار الحاج لمن معه بحرق الخيمة، فألقوا نيرانهم عليها فاشتعلت، وقبض على الغريب الصغير والأوسط، وظل كبيرهم يتأوى ويتألم تحت رجلي الحاج عوض.

ولم يشعر الحاج عوض بنفسه إلا وهو يكيل له اللكمات والضربات وكأنه يفرغ كل ما فيه من غل وغضب تجاه ذلك الغريب الذي جعله هو الغريب وسط أهله، وظل هو ومن معه يضربونه بالعصي ويتحرون الوجه، وآخرون يتحرون الساقين أملا في تكسيرهما، وعين الغريب إلى السماء كأنه يطلب من ربه أن يرحمه ويقبض روحه.

ثم اندفع شخص في وسط الضاربين وفي يده صخرة هوى بها على رأس الغريب، فكأن الناس استحسنوها، فتركوا عصيهم وتناولوا الحجارة ورجموه، والحاج عوض كالثور الهائج وكأنه يضرب ليهد الذل الذي شعر به ويرجم بالحجارة ليبني ثقته بنفسه من جديد، وسائر أهل الأرض واقفين لا يدرون ما يفعلون، فالحمية التي أخرجتهم على قلب رجل واحد تبددت مع آهات المروض. فها هو المروض الذي علّمهم القراءة والكتابة صريعا... المروض الذي أغدق عليهم تلك الهدايا التي أدخلت على قلوبهم السرور، ورطبت، ولو قليلا، عيشة الأرض الجافة... "واسفاه على مروضنا!" ولكن من الذي صرعه؟ إنه سيدهم الحاج عوض، إنها معركة بين الكبار، ليس للصغار إلا أن يرقبوا من طرف خفي، فلا تدري نفس إلى أي الفريقين تميل.

وبعد مدة هدأ الضاربون والراجمون، وسحبت جثة المروض وألقيت في نار الخيمة، وأمر الحاج أن يصلب الغريب الأوسط والصغير فوق الرماد بعد أن تنطفئ النيران. ثم التفت إلى الناس، ليمحو أية شك في النفوس، وتلا بصوت رخيم: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"

***

تعجل أحمض في إصلاح نعله، فقد انقطعت للمرة الثالثة، فطريقة صناعتها غير ملائمة للسير على الرمال والحصى. تحركت أصابعه بسرعة في محاولة لإحكام حبل رفيع يربط بها الجزء الممزق، ثم شد طرف الحبل بأسنانه، ولبسها في رجله وقفز ليلحق بمحموض، فقد تناقل أهل الأرض أن جيشا يسد الأفق قد اقترب من أرضهم.

فقد وصل خبر مقتل المروضين الثلاثة إلى إدارة الروضة البعيدة، فهاجوا وماجوا وقرروا إرسال جيش للانتقام من القتلة وللمضي في خطة ترويض الأرض وتحويلها إلى روضة. ولأن المروضين الثلاثة كانوا يرسلون تقارير يومية إلى إدارة الروضة، فكان رائد الجيش يعرف مَن من أهل القرية في صف الحاج عوض، ومن ضده. فقبضوا في سرعة فائقة على المعارضين المخربين.

وجمع الناس ووقف أحمض يسمع أحد أقربائه وهو يقرأ على الناس الحكم الصادر ضدهم وبجواره رائد الجيش: "حكمت محكمة الروضة على الحاج عوض، وعليّ وصالم ومحصن وصلاد أولاد ضرغام، وعلى عصام وصلاح ابني شلولخ،" وذكر عددا من أهل الأرض، "بالاعدام شنقا لقتلهم رعايا الروضة وحرق ممتلكاتهم، وإرهاب أهل أرض قيد الترويض،" ثم تلا خاشعا: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

وتعالت صرخات النساء، ووقف عماض ومن معه غير مصدقين أن الأمر وصل إلى إعدام الحاج عوض والعديد من كبار الأرض، ولكن أحدا لم يحرك ساكنا، ووقف الجميع يشاهد بعض أفراد الجيش وهم يربطون الحبال حول أعناق آبائهم وأعمامهم ثم تهوى أجسادهم فجأة فتتصلب ملامح وجوههم، وصراخ النساء وزعاريدهن يختلط في الخلفية.

واحتار أحمض من مشاعره، فبالأمس أثناء الخلاف الذي دار بين الرجال حول مصير المروضين، كان يميل إلى إبقاءهم بينهم ليستفيدوا من خيراتهم وخبراتهم، ثم فارت حميته عندما وقف الحاج عوض وقفته، ورأى أن الواجب طردهم، ثم ما أن رأى المروض يعذب ويرجم إلا وتحرك بداخله مشاعر العطف والأسى تجاه معلمه، ودب في نفسه امتعاض وكره تجاه القتلة، أما الآن فإنه يبكي على إعدام كبار أهل القرية، ولا يدري إلى أي الفريقين ينتمي... هل هو من شيعة الحاج، أم من شيعة المروضين؟ ولم يكن أحمض الوحيد الذي يشعر بهذه الحيرة، فجميع شباب القرية كانوا يعانون نفس التضارب في المشاعر والتشيّع، حتى حدث بينهم اجماع صامت، دون أن يدروا به، بأن الأمر أكبر منهم، وأن ما عليهم إلا ترك الأقدار تسوقهم حيثما شاءت.

ثم انصرف الناس...

وتولى رائد الجيش أمور الأرض وأعلن قيام الروضة الجديدة...

وبدأ الجيش على الفور في تخطيط الأرض وحفر الآبار، وقبل أن تغرب الشمس كانت المياة تتدفق فوق سطح الأرض. وأنشئت مَرْوَضَة مكان الخيمة المحروقة، بناها الجيش بالطوب، وساعدهم أهل الروضة الجديدة في بنائها، بدأت الأرض في الأخضرار، والناس يعملون مع المروضين الجدد في ترويض أرضهم ورياضتها، وأقبلوا هم أنفسهم على الرياضات العقلية والبدنية والنفسية والروحية، فاكتشفوا أن عقولهم كانت حبيسة قيود الماضي والتراث، وأن الوجود يتعدى أفق أرضهم وأن هذه الآفاق لابد أن تستكشف، واكتشفوا أن تدينهم كان تدينا سطحيا ساذجا، وأن الرياضة الروحية تسموا بهم وتقربهم إلى ربهم، وأنهم كانوا يؤذون أنفسهم بذلك الدخان اللعين، فتركوه وانصرفوا إلى الرياضة البدنية التي تقوي الجسد وتحافظ على صحته.

واخضرت الأرض وتوردت الحياة...

وأعلن أن المَرْوَضَة ستبدأ حلقات الرياضة، فتهيأ الأطفال والشباب لاستكمال الدروس التي بدأوها مع المروضين الثلاثة

الشهداء. وكان أحمض قد غسل لوحه وكتب عليها "بسم الله الرحمن الرحيم" تبركا بها، فقد كان يرى جده يفعل ذلك من قبل. ودخل الجميع في فناء المروضة وهم في أحسن ثيابهم، وجلسوا على الوسائد التي أعدت لهم، وانتظروا قدوم المروض الجديد.

وما أن دخل المروض، وسلم عليهم، إلا ونظر إليهم وسأل متعجبا... "ما هذا اللوحات؟"

قال أحدهم: "هذه ألواح نكتب عليها عند المذاكرة."

فهز رأسه وقال مُرَوِّضَا، "لا لا دعكم منها، ألم تسمعوا عن الورق؟" ووزّع عليهم صفحات من ورق ذات لون وردي خفيف وقال: "هذا ما يُكتب عليه في الرياض. هاتوا هذه اللوحات..."

وألقى الألواح بعيدا، فشعر أحمض بنغصة في صدره وهو يرى الألواح تلقى، وصوت ارتطامها يصم الضمير، فتسارعت المشاعر في قلبه... "هذا تراث الأجيال، وسلو الأجداد يلقى على الارض؟... ولكن أحدا لم يعترض، بل أقبلوا على الورق الوردي... فلعل الأمر هين... هي في النهاية أخشاب، وما هي إلا وسيلة للتعلم، وقد أبدلنا المروضون بوسيلة غيرها تؤدي الغرض بكفاءة أكبر... إذن فاين المشكلة؟ لو كان أجدادنا أحياء لما ترددوا في ترك الألواح والإقبال على الورق

الوردي... أحزنت لأن لوحك كان مكتوبا عليها "بسم الله الرحمن الرحيم"؟ إن المروض لم يكن يعرف أنها مكتوبة، ولو عرف لما ألقاها هكذا، فآثار التدين بادية عليه، وهو يحترم الدين ويذكر الرب كثيرا. اطرد عنك هذا الشعور! امسح عن قلبك هذه الكآبة... ابتسم كما يبتسم الآخرون، أقبل على الدرس والعلم... لا تبق أسيرا للماضي... الكل مقبل على الرياضة، فلا تخلد إلى الأرض كالأموات في قبورهم! تلك أمة قد خلت، ونحن جيل جديد، الأرض تغيرت... ستصبح روضة غدا، وعلينا أن نصبح روضيين كذلك!"

وهز رأسه وأخذ نفسا عميقا ونظر نظرة أخيرة إلى طرف لوحته التي خرجت من تحت سائر الألواح كأنها تختنق، ونظر نظرة أخيرة إلى "الرحيم"، وبلع ريقه، وعدل من مجلسه وأمسك بالقلم وكتب على الورق الوردي "بسم الله".

ومضت الأيام...

***

لم يعد الحاج عوض وأصحابه شهداء في نظر أهل الروضة الجديدة، كانوا أرْياض، يرفضون الترويض؛ ترويض الأرض وترويض النفس والعقل. كانوا عقبة أمام التَّـوَرُّد الذي أراد المروضون توصيله إليهم. كانوا يريدون منع كل هذه الخيرات

عنهم، ليظلوا بدوا يرعون الإبل، وليظلوا هم الزعماء. كانوا يدافعون عن التراث ليبقى الوضع على ما هو عليه، وليبقى الحاج عوض كبير أهل الأرض. مسكين الحاج عوض، ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا. قتل نفسا بريئة بغير نفس، وعذب بالنار ولا يعذب بها إلا ربها.

مسكين الحاج عوض. ولكن لم يكن وحده، فأهل الأرض كانوا كلهم مساكين، عماهم تراثهم وماضيهم، لم يكونوا ليتخيلوا أن هذا الخير متاح لهم إذا ما رَوَّضوا أنفسهم وأرضهم. "اللهم بارك في هؤلاء الذين فكّوا عنا قيودنا! اللهم بارك في هؤلاء الذين رَوَّضُونا وأنشأوا لنا روضتنا!"

وعاش أهل الروضة الجديدة، لا كبدو، وإنما كروضيين، وأقبلوا على الرياضات المختلفة، ورَضُوا بروضتهم، وبرائد جيش المروضين رائدا لهم. ومضت الأيام، وكل شيء على ما يرام.

الفصل الثالث

مرْوَضة الرواد

تعود أحمض أن يذهب إلى المرْوَضة مبكرا، فقد أحب مُرَوِّضَه وكان يستمتع بالحديث معه في أمور كثيرة مختلفة، وفي يوم دخل عليه وأشار إلى شيء بجوار الحائط وسأل عنه، فجاء الجواب: "هذا عُودٌ، أتدري ما العود؟ إنها آلة تعزف عليها ألحان تطرب لها الآذان والقلوب... انظر..."

وضرب على أوتارها فرفع أحمض حاجبيه مندهشا، فلم يكن سمع مثلها من قبل. ولاحظ المروض دهشته فقال: "أما عندكم آلات مثلها؟"

"لا ..."

"ألا تغنون وتعزفون؟"

"بلى، نغني في الأفراح، ونضرب الدفوف ولكن ما سمعنا بهذا من قبل!"

فقال له المروض، "إن العزف على أوتار العود، وآلات الطرب الأخرى، لهي من أهم وسائل رياضة الروح وتَوَرُّدها، إنها ترقى بالإنسان وترقق مشاعره. اسمع لهذا اللحن." وضرب

المروض لحنا من مقام الصبا وشعر أحمض كأن جسمه يلين، وبدأ في التأرجح بلطف دون أن يشعر وأغمض عينيه وهوى في غيابت قلبه كأنه سقط من الدنيا إلى عالم آخر.

خرجت النغمات حزينة لتشعره بحنين، ولكن إلى ماذا؟ لماذا يشعره العود بحزن لذيذ؟ لماذا يريد أن يستمر في هذا الحزن، بل وأن يزداد؟ كأنه اشتياق لن ينتهي إلى لقاء، كأنه عطش لن يروى، كأنه حنين سرمدي، وهمس في نفسه "ما هذا الاحساس العجيب؟ أسكرت أم سحرت بذلك العود؟"...

"أين ذهبت؟؟ أأعجبتك؟"

"جدا! أيمكن أن أتعلمها يوما؟"

"طبعا! سأعلمك العزف والمقامات..."

فسأل أحمض: "كم سأحتاج كي أستطيع أن أعزف كما عزفت الآن؟"

ضحك المروض وقال "على حسب إصرارك، فلو داومت على رياضة الأصابع والأذن ستصل إلى هذا المستوى بعد ثلاثة أشهر!"

وبدأ الأطفال والشباب يصلون إلى المرْوَضة، وبدأ درس جديد.

***

"أسرع يا أحمض! سيبدأ الاحتفال!"

قفز أحمض من أمام كتبه، فقد انشغل برياضة عقله ونسي أن الاحتفال على وشك الابتداء. وارتدى نعله في سهوله ويسر، فلم تعد تحتاج إلى إصلاح، حيث أن أهل الروضة الجديدة قد مهّدوا الطرقات لكي تناسب النعال الجديدة.

وخرج أحمض ومحموض لمشاهدة عرض الجيش للاحتفال بمرور عام على إقامة روضتهم. ونظر أحمض إلى جموع الناس التي اجتمعت بهذه المناسبة، وتذكّر أن آخر مرة اجتمع الناس فيها بهذا الشكل كان ليلة قادهم الحاج عوض لطرد المروضين، ثم يوم إعدامه بعدها. الوجوه هي نفس الوجوه، ولكن كل ما عدا ذلك تغير واختلف اختلاف الليل والنهار.

وعن هذا التغيير كان خطاب رائد جيش المروضين، الذي وقف وهنّأ الناس بهذا العيد، وعدّد كل الانجازات التي تمت في العام الماضي. ذكّرهم بالمرْوَضة التي أنشئت وفتحت باب الرياضة أمام جميع أهل الروضة، ذكّرهم بحقول الزرع وحدائق الفاكهة المسترْوَضَة، التي لولا جهدهم لما استراضت. وذكّرهم بأهمية ترويض الأرض والإنسان، ثم رياضتهما لكي تصبح روضة ويصبحوا روضيين. ثم نصحهم بألا ينخدعوا بهذا الإنجاز، فإن الترويض ليس نهاية المطاف، بل أوله، فإن كل روضي يجب أن يضع نصب أعينه أن يداوم على الرياضة حتى يصل إلى مرحلة الرِيادَة الوَرَادِية، فالرياضة تزيد من وَرَادَة

الرَوْضِيّ وتَوَرُّده، حتى يصل إلى قمة الرِيادَة الوَرَادِية التي هـــي هدف أي روضة على وجه الأرض.

وصفّق الناس لهذا الخطاب المؤثر، الذي عجزوا عن فهمـــه، ولكنه خير بلا شك أو ريب، والتغيير الفعلي الـــذي يرونـــه حولهم أبلغ من أي خطبة، فالحمد لله على روضتنا وبـــارك الله في مروضينا! وكل عام وأنتم بخير.

وأثناء احتفال الناس بهذا العيد في الساحة التي أعدت لذلك، وصل إلى أحمض رسالة من المرْوَضة تفيده بـــأن المـــرَوِّض في انتظاره. فاحتار أحمض من سبب هذا الاستدعاء وذهب مسرعا للقاء مُرَوِّضه.

***

دخل أحمض المروضة ولفت انتباهه صوت عجيب، فنظـــر فإذ بكائن غريب في قفص، كأنه إنسان قزم مشعر، هنالك أتى المروض ورأى تلميذه النجيب أمام القفص فبادره قائلا، "هـــذا قرد ... أرأيت قردا من قبل؟"

"لا... سمعت عنه فقط، لم أكن أعلم أنه يشبههنا إلى هـــذه الدرجة!"

"ولم لا؟ ألا تدري أننا وهو أقارب؟ وأننا كنا في يوم مـــن الأيام مثلهم ثم منّ الله علينا وسوّانا بشرا؟"

"كيف هذا؟؟"

"فعلا! أوعجبت أننا سواء في الأصل؟ أليس له عينين مثلنا ولسانا وشفتين؟ ويدين ورجلين؟ انظر إلى الإبل كذلك وإلى الخيل والكلاب، كل أولئك كانوا في الأصل حيوان واحدا!"

هتف أحمض متعجبا مستنكرا: "انظر ما تقول!!"

ضحك المروض وقال، "فكّر في الأمر، ألسنا أنا وأنت كلانا إنسان؟"

"بلى."

"أليس بيننا اختلافات؟"

"بلى."

"أليس أصلنا واحد؟"

"بلى، أبونا آضم."

فقال المروض: "فكذلك، نحن والقرد كلانا حيوان، ورغم أن بيننا اختلافات كثيرة، إلا أن أصل آدم وأصل القرد واحد!"

فسأله أحمض: "ألم يخلق آضم من طين؟"

فرد مُرَوِّضَه: "بلى، فأصل آدم والقرد خلق من طين."

سكت أحمض... وحدق في القرد طويلا... تعجب من حركاته، يلتقط الحب ويتلفت يمينا ويسارا، ثم يقشره، فيتلفت،

ثم يأكل، ثم يهرش، فيقفز إلى أعلى ثم يلتقط حبا آخر ويقشره ويهرش، ويتلفت ويأكل... تأمل دقة أصابعه السوداء... كم هي صغيره إلا أن لها مفاصل وأظافر... ثم خطر في باله سؤال وجّهه إلى مروضه...

"لما سمي قردا؟ ألعلاقة مع القراد الذي نجده في إبلنا؟"

فرد المروض منبهرا: "كيف تنبهت لذلك؟ هذا بالفعل صحيح! فكما أن القراد يلصق بالإبل ولا يتحرك، فكذلك الرجل الأقرد لا يتحرك إذا رأى منكرا، بل يسكت كالذليل. فالرجل الأقرد هو الذليل الخاضع، ومنها جاء أسم القرد، لذله وخضوعه."

ابتسم أحمض لأنه نجح في توقع علاقة ما، وإن لم يخطر على باله أن تكون هذه، ولكنه قال مفتخرا، "تماما! لقد شعرت لما رأيته أنه ذليل بالفعل... انظر كيف يأكل.. يأكل كأنه لص!" ثم سأل في فضول، "هل لي أن ألمسه؟" فرد المروض محذرا، "لا، لا يغرنك ذله، فهو ذليل وريّض في ذات الوقت، إنك إن اقتربت منه سيمسك بك ولعله يعضك أو يمزق ثيابك!"

تفهم أحمض المخاطر وقال، "حسنا فلنتأمله من بعيد!"

ثم أراد المروض تغيير دفه الحديث إلى السبب الذي دعا أحمض من أجله، فقال "دعك من هذا كله، لقد طلبت

حضورك لأكلمك في موضوع مهم." التفت إليه أحمض، وتذكر أنه لم يأت ليلعب من القرد، وإنما لرسالة أرسلت إليه تستدعيه، فالتفت إلى المروض الذي واصل، "لقد لاحظت دأبك وجديتك في الرياضة"

قال أحمض في حماس: "نعم! إنني أشعر بأنني محلق، أطير في السماء عندما أتعلم كل هذه الأشياء!"

"هذا هو الشعور الذي ينتاب الذي يتخلص من أوزار الجهل يا بني، هنيئا لك! ولكنني بدأت ألحظ أنك تسأل أسئلة عميقة المغزى"

خاف أحمض أن يكون قد تعدى حدوده في أحد الدروس، لقد شجعوهم على الحوار والتعبير عن الرأي بلا خوف ولا تحفظ... هل تجاوز المسموح؟

ولكن المروض أخرجه من قلقه عندما قال: "إنني مستعد لتزكيتك لتلتحق بمَرْوَضَة الرُوَّاد! ستجد هناك رُوَّادا في جميع الرياضات العقلية والروحية والنفسية والبدنية، أنا متأكد من أنك ستستفيد كثيرا هناك، فأنا واثق بأن مستقبلك سيكون باهرا!"

تلجلج أحمض وقال: "لا أدري ما أقول... هذا شرف عظيم، فقد سمعت عن هذه المروضة منك ومن المروض

الشهيد، ولطالما حلمت برؤيتها يوما!" ثم نظـــر إلى الأرض في خجل مصطنع وقال "أصدقك القول يا مروضي المبجل، لقـــد كنت أفكر أن أسألك عن كيفية الالتحاق بها!"

"إذا فهل أعتبر هذا دليلا على موافقتك؟"

"طبعا، أنا في غاية الامتنان لك وأعدك ألا أخيب رجائك!"

***

خرج أحمض من المروضة منتشيا مسرورا، ... "ما أحلـــى الرياضة! ما أحلى رياضة الأرض الـــتي تحـــول الـــصحراء إلى روضة، وما أحلى رياضة العقل الـــتي تحـــرر إرادة الإنـــسان وتطلقها في آفاق الممكن بعيدا عن قيود المستحيل!"

هذا أحمض، الذي لم يكن أمامه إلا رعي الإبل، أمـــا الآن فقد عرض عليه أن يذهب إلى مَرْوَضَة الرُوَّاد ليجـــالس كبـــار الرواد ويمارس أدق الرياضات!

ولكن هذا سيتطلب موافقة أمه، "وهل سترضى أن أســـافر إلى روضة الرياض وأتركها مع اخوتي؟ كيف سأقنعها؟"

دخل أحمض على أمه وقد أعد خطة الحوار، كيـــف أنـــه سيمهد للموضوع ثم يفرحها بالخبر السار ويوضح أهمية هـــذه الخطوة، وكيف أنها لا تحدث للإنـــسان إلا مـــرة في العمـــر، وكيف أنه سيداوم على مراسلتها وسيحكي لها كل تفاصـــيل

حياته، وسيرسل لها ما يتيسر من نقود. فإن اعترضـت بأنها تخاف عليه من الحياة بعيدا عنها، سيرد بأنه أصبح رجـلا ولا ينبغي أن تخاف عليه، فإن تعللت بأنها لا تقدر علـى فراقـه، سيعدها أن يزورها في العيدين وكلما أتيحت الفرصـة، فـإن بكت فسيحضنها ويربت على ظهرها ويقبل جبينها وسـيعمل على إرضاءها حتى ترضى وتوافق.

وظل يفكر ويفترض المواقف ويحضر لها، ويتخيل التعقيدات ويفكر في حلها، حتى دخل عليها، فوجدها جالسة أمام الشباك تنظر إلى جدول الماء بالخارج.

"مساء الخير يا أمي،" وأقبل عليها وقبّل يدها، فقبّلت رأسه وحضنته... والدموع في عينيها. "خلاص يا أحمض؟ سـتتركنا وتسافر؟ ألف مبروك يا ابني"

"كيف عرفت؟"

"جاءني رسول من المروضة يبارك لي على نباهة ابني وانـه حصل على فرصة للدراسة في المروضة الكـبيرة، وأن روضـة الرياض ستدفع لك ولنا مصروفا شهريا إلى أن ترجع."

"لكنني لن أسافر إلا برضاك يا أمي!"

"وكيف لا أرضى عن ما فيه الخير لك يا ولـدي؟ سـافر واذهب وتعلم واتقي ربك واخلص نيتك وعد لنا سالما غانمـا،

ولا تنسانا بالرسائل، وابتعد عن اصدقاء السوء... لقد صــرت رجلا، وأعلم أن أباك كان سيفخر بك لو كان حيا... سافر يا ابني يا حبيبي."

"بارك الله فيك يا أمي، ربنا ما يحرمنا منــك أبــدا ومــن دعواتك... وقبّل يدها ورأسها وخرج مبتسما ســعيدا ليبلّــغ أصحابه، وجلست هي تنظر إليه وهو يجري بجوار الجــدول، وسالت دموعها على خدها."

***

دخل أحمض أسوار الروضة فانبهر ووقف مشدوها، هــي كما حكا له المروض بالتمام، النــاس مُــوَرَّدة وســعيدة في الطرقات، رآهم يضحكون ويغنــون ويتجــاذبون أطــراف الحديث، لون المكان وردي كالدهان، ما أجملها!

دخل السوق فانتشى وأطلق ضحكة من قلبه، يا رباه! كما وصف المروض، تلك الروائح التي أتت من كل بقاع الأرض! هذا عطر أندلسي، يعانق رائحة التوابل الهندية، والبخور العربي، وأغمض عينيه وأخذ نفسا عميقا شعر معها أنه علــى بــساط سحري أسرى به إلى الصين ثم عرج به إلى أعلى حدائق بابل، ثم طاف به بين فارس والفسطاط، وكل رائحة تحكــي قــصة وتصف رحلة... ثم فتح عينيه وابتسم ومضى.

وتأمل السكينة والوقار الذي حلّ على الناس في السوق. الناس يشترون أغراضهم دون فصال ولا جدال، فالأسعار مكتوبة وواضحة والبيع والشراء عن تراض. وخرج من السوق وتأمل آثار التَوَرُّد على الناس، فالخدود وردية تنم عن صحة والناس تمشي في هدوء لأنها تعيش في الروضة، الروضة، حيث الأمن والآمان.

واهتدى إلى مكان مروضة الرواد دون أن يضطر إلى سؤال أحد، فاللوحات منصوبة تشير إلى طرق الغايات، ودخل المروضة ...

***

مروضة الرواد بناء ضخم مهيب، يسري فيها نسيم لطيف، يدخلها المرء من الباب الأمامي فيشعر ببرودة مفاجئة يتبعها دفء هادىء، فالمروضة مشيدة من الرخام، وسقوفها عالية ونوافذها واسعة، فيدخلها الهواء ليرطب جوها ويبردها، ولكن سقف المروضة هذه من قوارير متعددة الألوان، فينفذ منها شعاع الشمس ليدفئ المكان، فالرخام بارد والجو دافيء، ومدخل المروضة يدخل منه الناس ويندفع منه الهواء إلى الخارج. ولون الرخام وردي خفيف، منحوت فيه زخارف وكلمات ويبرز من جدرانها صور الرواد عبر التاريخ وفوقها أسمائهم.

وقف أحمض منبهرا في بهو المروضة ينظر إلى جميـــع هـــذه الصور ويقرأ أسماءها "أرستو"... "ابن رشد" ... "كانْت" ... "الغزالي" ... ثم نظر إلى الجانب الآخر ورأى مزيدا من الصور المنحوتة؛ "أفلاتون" ... "كونفشيوس" ... "سُكْرات"، وظـــل ينظر في الصور، منهم من عرف أسماءهم ومنهم من لم يعرف، ثم خطر بباله خاطر، "غدا... غدا سيكون صورتي بجـــ..."

"أنت أهمت أليس كذلك؟" انتبه أحمض والتفت فرأى رجلا مسنا ومعه أوراق. "نعم أنا أحمض."

"أهلا بك في مروضة الرواد، مهمتي أن أعرفك على المكان ثم أقدمك للرائعقلي الذي سيشرف على رياضتك."

كان مروض أحمض قد حكى له أن كل من يدخل المروضة يلازم أحد الرواد تبعا للتخصص الذي سيركز عليه. فمن جاء من أجل الرياضة الروحية فسيشرف عليه رائـــد في الرياضـــة الروحية، أو رائروحي، ومن جاء من أجل الرياضـــة النفـــسية فسيشرف عليه رائنفسي. أما أحمض فـــلأن مروضـــه رأى أن يركز على الرياضات العقلية، مع تعرضه للرياضات الأخـــرى، فإنه طلب من المروضة أن يشرف عليه رائعقلي.

واتبع أحمض الرجل المسن الذي سار معه في جميـــع أنحـــاء المروضة، وشرح له اسم كل مكان ووظيفتـــه، ورأى أحمـــض

الحلقات في مختلف الأروقة والكل منتبه إلى الرائد الذي يشرح لهم، ثم وصلا إلى غرفة صغيرة ووقفا على بابها وقبل أن يطرقه الرجل المسن قال لأحمض: "هذا الرائعقلي سليم الذي سيشرف عليك" وطرق الباب فخرج إليهما رجل مبتسم وقال بنشاط:"أه! أهمت! لقد وصلت أخيرا! لقد بلغني عنك كلاما جميلا."

رد أحمض خجلا: "يشرفني أن أكون تحت إشرافك أيها المروض المبجل."

فضحك الرائد ضحكة متوردة وقال، "يا بني، أنت هنا في مروضة الرواد، حيث الرياضة، لا الترويض، وأنا هنا رائدك، لا مروضك، فلو كنت تفتقر للترويض لما أرسلوك إلى روضة الرياض!" ثم قال في حركة مسرحية وهو يرفع يده إلى أعلى: "فأنت هنا للرياضة حتى تصل إلى الريادة!"

ثم أنزل يده وربت على ظهر أحمض ودعاه ليتناول معه طعام الغذاء "فلابد أنك متعب وجوعان من طول السفر!"

الفصل الرابع

الرُوْدِيَّة

استقر أحمض في مكانه الجديد و لم يطق أن ينتظر يوما واحدا قبل بدء الرياضة، فلم يستطع أن ينم الليلة الأولى من فرط تفكيره في المروضة وحماسه للرياضة، وظل يتقلب في سريره ويتخيل تفوقه بين الأقران، وانبهار الرواد به وتخرجه من المروضة بعدما يشهد له الجميع بالريادة، ثم ذيوع صيته في الآفاق، إلى أن يقف يوما أمام صورته المنحو...

انتبه أحمض فجأة إلى أن الشمس على وشك الشروق وأنه لم يصل الفجر بعد، فقام وتوضأ وصلى ثم خشى أن ينم فيضيع عليه أول درس، فقرر أن يخرج في الروضة ليشم نسيمها الباكر، فترل واستمتع بزقزقة الطيور التي بدأت تعلوا مع شروق الشمس، ودخل السوق فوجد بعض المحلات قد بدأت تفتح أبوابها، فاختار أقربهم وجلس وتناول الفطور... وطبعا لم يدفع شيئا، لأن كل من جاء من أجل مروضة الرواد يأكل ويشرب وينام على حساب إدارة الروضة، فهم رواد الغد، وحملة مشاعل الريادة!

عاد أحمض إلى المروضة وجلس في المكان المخصص لحلقات الرائعقلي سليم، وسرعان ما غلبه النعاس و لم يفق منه إلا

بدخول سائر الطلاب تترا. فجلس ومسح النوم عن وجه وتهيأ، ودخل الرائعقلي واتخذ موقعه وبدأ في شرح الـــدرس الأول... ومرت الأيام والدروس، وأحمض يتفوق في رياضته.

بل إن أحمض بلغ مبلغا من التفوق الملحوظ، مما جعل إدارة المروضة ترشحه لممارسة رياضات عقلية في مجال إدارة الرياض، وهو مجال لا يمارس رياضته إلا رواد العقليات، فهو المجال الذي يدرس كيفية ترويض الأراضي الجديدة لتحويلها إلى ريـــاض ثم إدارتها بعد ذلك. وهذه الرياضة لا تتم إلا في جلسات ثنائيـــة، تضم المتريض ورائده، وانتظم أحمض في هذه الدروس المتقدمة وأهتم جدا بالأصول العقلية لها.

وفي إحدى هذه الجلسات الثنائية وبعد الدروس التمهيدية، بدأ الرائعقلي في شرح القاعدة الأم، فقرأ من الكتـــاب الـــذي أمامه: "الرُوْدية أساس الرَوضة ◯ وهي تفتقر إلى الوَرَاديـــة والوَرَادَة ◯ وثمرتها الرَوَاضَة وحاميتـــها الرَوْضـــانية◯". ثم أغلق الكتاب وأخذ نفسا وبدأ يشرح: "هذه القاعدة يا أحمـــت من أهم القواعد التي عرفتها الإنسانية، وسنقوم خلال الأشـــهر القادمة بشرحها وتناول بعض التطبيقات عليها. ولنبدأ اليـــوم بالكلمة الاولى فيها وهي "الرُوْدية"

"الرُوْدِية هي قدرة الإنسان على التعبير عن إرادته. والرودية هي أغلى ما يملكه الإنسان وأساس أي روضة متوردة. وتقييد رودية الإنسان من أقبح الجرائم. فإن الإرادة سر الحياة."

هنالك انتبه أحمض وتذكر أن المروضين كانوا يعلمونهم هذه العبارة "الإرادة... سر الحياة!" فدبّت سعادة الفهم في نفسه وغرق في الدرس بكل جوارحه. واستمر الرائعقلي في شرح أهمية إرادة الإنسان وروديته، وأطال في الشرح حتى ختم الدرس قائلا، "والرودية الحقيقية لا تتوفر إلا في ظل وَرَادَة ووَرَادية. فالقاعدة تقول "وهي تفتقر إلى الوَرَادية والوَرَادَة." وسنتناول هذين المصطلحين بالشرح الوافر في الأيام القادمة."

وبعد انتهاء الدرس، ذهب أحمض إلى الرائروحي لاستكمال دروس العود، فمن ضمن ما بدأه أحمض مع قدومه إلى الروضة هو متابعة رياضة أصابعه وأذنيه لتعلم طريقة العزف على العود. فكانت هذه السويعات القليلة التي كان يقضيها مع الرائروحي تمثل لحظات التطهير والاغتسال الروحي، فيهدئ أحمض ويسبح مرة أخرى في بحر الحنين والشوق. فمنذ أن سمعت أذناه صوت العود عرف أنه يفهمها وأنها تفهمه، وأن بينهما حوار ومشاعر، وكان يشعر معها بحزن لذيذ جميل.

وفي اليوم التالي، بدأ الرائعقلي في شرح بعض التطبيقات على درس الرودية فقال، "تحدثنا بالأمس عن الرودية وأهميتها، وسنتناول اليوم بعض تطبيقاتها، ونبدأ بمسألة الدين والتديّن...

إن الذي يريد أن يدخل في دين ما له أن يفعل ذلك، والـــذي يريد أن يدعو أحدا إلى دينه له أن يفعل ذلك أيـــضا، فهـــذه إرادته، ولكن عليه أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ولـــيس له أن يفرض دينه على أحد أو يكره أحدا على الخروج من دين والدخول في آخر، وذلك احتراما لإرادة غيره، فلا إكـــراه في الدين. فأنت تسعى إلى ما تريده حـــتى ترضـــى ولكـــن دون التعدي على إرادة غيرك."

وبدأ الرائعقلي يناقش أحمض في هذا التطبيق فيـــسأله عـــن مواقف خيالية لإنسان يمارس دينه وسط آخرين، وما إذا كـــان المتدين قد تعدى على إرادة غيره أم لا، ثم عكس الآية وأعطى أمثلة أخرى وسأل إذا ما قد تم الإعتداء على رودية المتـــدين أم لا، وكانت رياضات عقلية شيقة تتطلب التفكير العميق، وهذا كله من أحب الأشياء إلى أحمض.

ثم اختلفا في أحد الأمثلة، حول إجبار الأب لإبنـــه علـــى التديّن وعلاقة ذلك برودية الطفل، وطال السجال والخـــلاف بينهما في جو متورد يساعد على ترسيخ المفاهيم والقواعد، ثم أجمل الرائعقلي ولخّص فحوى الدرس وقال: "يا بني، إن الإيمان الصحيح قائم على الرودية، فإن إيمان المقلد أو المكره لا يقبل، ولا فائدة من وراءه. إن الإيمان لا يصح إلا إذا تم بمحض إرادة الإنسان. ولذلك فإن على الروضة أن توفر للروضيين فرصـــة لاكتشاف ما يريدونه، عسى أن يقودهم ذلك إلى إيمان صادق،

ولأن الأديان تتعدد، وطرق التديّن تختلف، فإن الروضة تسع لجميع الأفكار والتيارات وللإنسان أن يختار ويتبع ما يقتنع به. ثم ألا تتفق معي أن الدين الحق قادر على جذب الأتباع بالدعوة والحكمة والإقناع ودون فرض والقهر؟"

رد أحمض مؤكدا: "بكل تأكيد أيها الرائعقلي!"

وفي اليوم التالي تابع أحمض والرائعقلي تطبيقات درس الرودية، فقال الرائعقلي: "ومن تطبيقات هذه القاعدة مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة، إن الذَين يريدان أن يدخلا في علاقة عاطفية لهما أن يباشرا إرادتهما حتى يرضيا، سواء رغبا في توثيق العلاقة أم لا، وسواء نوا الاستدامة أم لا، فالأصل والأهم هو توافر الإرادة وردية الطرفين، وعلى الروضة أن توفر للجميع سبل مباشرة هذه الإرادة حتى الرضا، دون التعدي على إرادة الغير."

ودار نقاش حول هذا التطبيق، وجادل أحمض رائده بحجة أن ذلك قد يعتبر زنا محرم، فرد الرائعقلي أن هذا ينطبق على من يدين بدين يحرم الزنا، أما من لا يدين بدين فلا ينطبق عليه هذا التحريم، والروضة لا تتبنى دينا دون الأديان، وإنما تعمل على تنظيم تحقيق إرادة الناس لضمان عدم الاعتداء على إرادة الغير.

ثم جادل الرائعقلي تلميذه، "هب أن امرأة ورجلا إرادا أن يقيما علاقة عن تراض، وعَرِف بعض أصدقاءهم بهذه العلاقة، أليس هذا ما يتطلبه أهل الأديان من قبول وإشهار؟ فما الداعي لأن يعرف جميع أهل الروضة أو أن يوثق أو ما إلى ذلك؟"

وعاد الرائعقلي وذكر عدة مواقف خيالية لعلاقة بين إثنين، ثم سأل أحمض عما إذا كان هناك إعتداء على إرادة أحد الطرفين أم لا، ونجح أحمض في الجواب على هذه الأسئلة، بل وفكر في مثال واختبر رائده فضحك الرائد ضحكة تدل على سعادته بنباهة تلميذه، إذ أن هذا المثال لا يتوصل إليه إلا رائعقلي قديم!

وفي اليوم التالي، استمر الرائد وتلميذه في شرح التطبيقات على قاعدة "الرُوْدِيّة" وتناولا مسألة الإدارة، وكيف أنه ليس لأحد أن يدير الروضة إلا بإرادة الروضيين، وأن السبيل إلى معرفة إرادتهم هي العملية الإنتخابية التي يختارون من خلالها مديرهم. فإن الروضيين يختارون رائدهم من بينهم بمحض إرادتهم ويوكلون إليه سياسة أمورهم بما يتناسب مع الأصول المتفق عليها؛ إعطاء أكبر مساحة لإرادة الإنسان أن تتحقق دون الاعتداء على إرادة الغير.

***

وبعدما شعر الرائعقلي بأن مفهوم الرودية قد رسخ لـدى أحمض بدأ في شرح بقية القاعدة الأم فقال، "ذكرنا في الدرس الأول أن الرودية الحقيقية لا تتوفر إلا في ظل الوَرَادَة والوَرَادية، وحديثنا اليوم عن الورادية. ولكي أوضح علاقة الرودية بالورادية، دعني أعطيك مثالا. هب أنني قلت أن لك رودية اختيار أي صنف من أصناف الطعام التي أمامك و لم أوفر لـك إلا صنفا واحدا وخبأت الباقي، فإن هذا استبداد خفي ورودية كاذبة، وإنما الرودية الحقيقة أن أوفر لك جميع الأصناف لتختار منها ما تريد. وتوفير البدائل لا يتم إلا في ظل الورادية والرخاء."

ثم تابع الرائعقلي: "ولكن هب أنني خيرتك بين عشرة أصناف، فاخترت احداها، ولكنني لم أوفر لك وسيلة لأخذها والإنتفاع بها، فهذه أيضا رودية كاذبة، أي أن الرودية الحقيقة لا تتم إلا في وجود الوسائل التي تمكن الإنسان من تحقيق إرادته. فلا يكفي التعبير عن الإرادة، وإنما تحتاج إلى وجود بدائل لتتأكد من أنك تريد ما تريد دون غيره، كما تحتاج إلى وسيلة لتحقيق ما تريد. وكل هذا لا يتأتى إلا في ظل الورادية."

ثم انتقل الرائعقلي في اليوم التالي إلى المصطلح الثالث وهو الورادة وقال: "تحدثنا من قبل عن الورادية وعلاقتها بالرودية.

واليوم نتحدث عن الوَرَادَة، ما هي الورادة؟ الورادة هي ثمـــرة الرياضة، فكما أن الرياضة البدنية تقوي الجسد وتُوَرِّد الخدود، فكذلك الرياضة العقلية والنفسية والروحية، فإنها تورد العقــل والنفس والروح. والوَرَادَة شرط أساسي لصدق الرُودية، فــإن الريّض الذي يفتقر إلى الترويض فضلا عن الرياضة، إذا ما ترك ليحقق ما يريده حتى يرضى، فإنه سيضر نفسه قبــل غــيره، وبالتالي، فإن من أهم ما يجب على إدارة كل روضة، التأكــد من أن سبل الورادة متاحة للجميع."

وبعد شرح مستفيض، لخص الرائعقلــي الــدرس قــائلا: "فالرودية الحقيقة لا تتوفر إلا في ظــل ورادة ترشــد تحقيــق الإنسان لإرادته."

ثم ختم كلامه في نبرة مشجعة وقال مبـــشرا: "والإنـــسان الذي يقبل على الرياضة لاشك أنه سيتورد، ومن المتوردين من يتفرغ للرياضة في مجال ما فيصل إلى مرحلة الريادة، وهؤلاء هم أبطال كل روضة!"

ونظر الرائعقلي إلى أحمض نظرة مفادها أنه يرى فيه أحــد رواد الغد وحامل لمشعل الريادة! فزاد إقبــال أحمــض علــى الرياضة بسبب هذا التشجيع.

وخرج من عنده وذهب إلى الرائروحــي لمواصــلة دروس العود، وبسبب وصوله مبكرا فلم يكن الرائد قد انتهى بعد من

الدرس الذي كان قبله، فنظر أحمض فرأى ظهر فتاة جالسة تضرب العود، وحلّق أحمض في سموات الشجن وكأنه يذوب، وما أن التفتت الفتاة فرأى وجهها، إلا وزاد تحليقه وذوبانه وكأنه وصل إلى مرحلة الفناء في المطلق. لم يكن قد رآها من قبل، ولكن لا بأس، فكل حياته قبل هذه اللحظة عدم وهباء، واعتبر أن حياته قد بدأت للتو وقرر أن يؤرخ للوجود بدءاً من لحظة رؤيته هذا الوجه!

***

"عندي سؤال أيها الرائروحي المبجل... من هذه التي كانت تضرب العود قبلي؟"

"اسمها فاتنة، ألم تقابلها في المروضة من قبل؟"

"لا"

"عجيب، فهي تمارس الرياضات العقلية كذلك... يقولون أنها ستصل إلى مرحلة الريادة قريبا!"

تحرج أحمض من أن يكثر السؤال عنها خشية أن يكشف الرائروحي عن اهتمامه بها. ولكنه بدأ يسأل كل من يعرفهم بطريق غير مباشر عنها، حتى عرف مواعيد دروسها والرائعقلي المشرف عليها، وعلم أنها مهتمة بكتابات الرائعقلي المعروف

طومَاص، وأنها رغم ذكائها المفرط إلا أنها لا تجيد عزف العود بسبب عدم قدرتها على تمييز الأصوات بدقة.

وعرف مكان إقامتها وقرر تحويل جميع مساراته لتمر أمام بيتها، فمشوار السوق الذي كان يستغرق خمس دقائق صار الآن يستغرق عشرين، لأنه يمر من أمام بيتها، والمروضة التي هي بجوار بيته صارت بعيدة، إذ أنه قرر المرور أمام بيتها في طريقه إلى الرياضة، لعله يراها مرة أخرى. أصبح أحمض يحلم باليوم الذي يضرب لها على العود، أو يمارس معها بعض الرياضات العقلية.

ومرت الأيام، وزادت دقات القلوب.

***

"سنتحدث اليوم يا أهمت عن الرَوَاضَة، وهو مصطلح مهم لأنه مذكور في القاعدة الأم، إذ تقول "وثمرتها – أي ثمرة الرودية – الرواضة"، فالرواضة هي ثمرة الرودية أي أنها مجموع الورادة والورادية في ظل الرودية. وظل يشرح الرائعقلي درس الرواضة، وأن أغلى ما تتركه الروضة للأجيال القادمة ولسائر الإنسانية هي الرواضة المتوردة، التي تمتص القديم لتفرز الجديد، وكيف أن هذا كله لا يتم دون رُودية. ومضى الوقت سريعا، وانتهى الدرس، وختمها الرائعقلي بقوله "سنكمل غدا كلامنا عن الرواضة إن شاء الله..."

وفي اليوم التالي دخل أحمض على رائده مندفعا... "يا رائدي، رأيت اليوم عجبا! تخيل؟! رأيت رجلا يقبّل رجلا آخر ويعانقه على قارعة الطريق، و لم يستنكر أحدا!"

فرد الرائد مبتسما: "وما في ذلك؟"

فرد أحمض ولازال يلهث: "يا رائدي، أقول لك كان يعانقه كما يعانق الرجل زوجته!!"

فسأله الرائد مروضا: "هل قيد إرادتك أو اعتدى عليك؟ هل أكرهك على أن تفعل مثله؟"

فهز أحمض رأسه نافيا، فتابع الرائد: "إذا فأين المشكلة؟"

قال أحمض رافعا حاجبيه: "إنه فعل شنيع!!"

"ومن شنّعه؟"

فقال أحمض بثقة، "الله! كل الأديان تقول ذلك!"

فكأن الرائعقلي كان ينتظر هذه الإجابة فقال: "إذا، فليتمنع أهل الأديان عن هذا الفعل، إذا كان دينهم يمنعهم عنه، ولكن ليس لهم أن يفرضوا دينهم على غيرهم ويقيدوا بذلك إرادتهم. يا بني، إن الإيمان والتديّن تقييد اختياري لإرادة الإنسان. أنت إن رضيت هذا العهد مع الله فالزمه، أما إن لم يرضه غيرك فلا تفرضه عليه ضد إرادته، وإنما إن شئت فادعه إلى دينك

بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن لم يرض فدعه وادع له، وإياك والإكراه أو الكراهية، وإنما تعامل مع الموضوع بتَوَرُّد، بما يليق برَوْضِيّ يسعى إلى الريادة. ألم نناقش طوال الأيام الماضية أن الروضة مبنية على قاعدة أن الكل يسعى في طلب ما يريده حتى يرضى دون أن يعتدي على إرادة غيره؟"

ثم بدر إلى ذهن الرائد أن أحمض ربما يفهم هذه المفاهيم فهما نظريا يفتقد للترسيخ العملي، فقرر أن يعدّل من اسلوب الرياضة، واختار أن يتجول هو و أحمض في طرقات الروضة، ليرصدا بعض الظواهر ويناقشوها. فخرجا من بيت الرائعقلي إلى الطريق العمومي ومرّا بجوار الحمام العام فبيت القاضي، ثم انعطفا ودخلا السوق. وهنالك لمح الرائعقلي رجلا جالسا خارج مطعم الشيخة زُزَّة يدخن لفافة دخان. فجذب أحمض من ذراعه واقترب من الرجل وصبّح عليه وسأله: "لماذا تدخن خارج المطعم؟"

"الشيخة زُزَّة تمنع التدخين بالداخل، تقول أنه يتنافى مع رياضة البدن والتورد."

فسأله الرأئعقلي: "وهل توافق على ذلك؟"

"لا! ولكنها صاحبة المطعم كما تعلم."

"ولماذا لا تأكل في مطعم آخر يسمح لك بالتدخين؟"

فانتبه الرجل وسأل مستنجدا: "وأين ذلك المطعم؟؟ دلني عليه، ألا تعلم أنهم جميعا يتّبعون سُنّتها؟ لقد ضيقوا على الواحد عيشته!"

هنالك التفت الرائعقلي إلى أحمض وسأله: "ما رأيك في هذا يا أهمت، أمن حق الشيخة ززّة أن تقيد رُوْدِية شخص يريد أن يدخن أثناء تناول الطعام؟"

فرد أحمض: "ولكنه يؤذي غيره بذلك ويقف أمام إرادتهم في استنشاق هواء نظيف غير ملوث بدخان التبغ. وقد سمعت أن الرائبدنيين يحذرون بالفعل من مخاطر الدخان."

فاستجوبه الرائد: "فلأنه يتعدى بإرادته على إرادة الآخرين فيجب أن نقف أمام إرادته هو؟"

أحمض: "نعم، أليست القاعدة أن الكل يسعى في طلب ما يريده حتى يرضى دون أن يعتدي على إرادة غيره؟ فله إذن أن يدخن بالخارج فيصيب ما يريد من دخان دون أن يعتدى على ما يريده الآخرين من هواء نظيف."

فرد الرائعقلي: "ولكن الذي يريد هواء نظيفا قد اعتدى بذلك على رُودية هذا الرجل ومنعه في التدخين أثناء الأكل في مطعم الشيخة ززة!"

فكر أحمض قليلا ثم قال: "ولكن الأولوية لطالب الهواء الطبيعي النظيف، لا لطالب الهواء الملوث بالدخان."

هنالك ابتسم الرائعقلي وقال: "حسنا، تـــذكر مقولتـــك هذه!"

فانطلقا، حتى إذا لقيا فتاتين تبكيان، سألهما الرائعقلي "مـــا خطبكما؟"

قالتا: "وصلنا إلى الروضة اليوم فنُهينا من دخولها حتى نخلع حجاب رأسنا وعلامة تديننا. لقد جئنا من أرض حميضة كئيبة تعامَل المرأة فيها كالبهيمة، وأتينا الروضة لكيلا يقيد إرادتنـــا أحد، أيكون هذا أول ما نلقاه؟ أينزع عنا ما نريد أن نلبـــسه؟ أين احترام رودية الإنسان؟ أين القيم الورادية؟؟!"

رق لهما أحمض وشعر بتلك النغصة التي شعر بها عندما ألقي المروض بالألواح، وانتبه لسؤال رائده "ما رأيك يا أحمت؟ ألهما أن يلبسا حجاب رأسهما وعلامة تدينهما؟"

"بالطبع نعم يا رائدي، إن كانا يريدا ذلـــك فلمـــا لا؟؟ لم يكرهما أحد وهم لا يعتدون على إرادة أحد! ثم إن الروضة لا تعادي الدين بل تفسح المجال لكل ملة وفرقة أن تمارس طقوسها وتنشر أفكارها وتدعو إلى صراطها ما دامت لا تؤذي أحدا ولا تعتدى على إرادة أحد، فلماذا إذا ينزع عنهما حجابهما وعلامة تدينهما؟؟!"

رد الرائعقلي مبتسما: "أتتذكر درس إرادة التدين؟"

"نعم، للروضي أن يمارس دينا ويدعو إليه بالحكمة والموعظة دون إكراه الناس أو مضايقتهم."

فأومأ الرائد وقال: "تماما، وإذا ما دعوت إنسانا إلى دينك فرفض، أيجوز أن تلح عليه بالحكمة والموعظة الحسنة؟"

أحمض: "لا لأنه رفض وأبدى أنه لا يريد أن يسمعني."

فرد الرائد: "فكذلك، إن في الروضة أناس لا يريدون أن يدعهم أحد إلى دين غير دينهم، أو لا يريدون أن يُدعَوا إلى دين أصلا، وعندئذ تصبح رموز وعلامات التدين هذه حيلة للإلحاح عليهم وتذكيرهم المستمر بالدين الذي لا يريدون التفكير فيه. أي أن هذه الرموز تصبح اعتداء على إرادهم في رفض دعوتك."

فكر أحمض ثم تابع: "ولكن إرادهم في روضة خالية من الرموز التي تذكرهم بالدين تعتدي على إرادة هاتين الفتاتين في ارتداء شيء لا يريدان بها دعوة عامة وإنما تدين شخصي. فلماذا يفضل إرادة الغير على إرادهما؟"

ابتسم الرائد وقال: "ألم تقل في حالة التدخين أن الأولوية للراغب في تنفس الهواء الطبيعي؟"

"بلى."

"فكذلك في هذه الحالة، الأولوية للذي يريد مجتمعا خال من علامات ورموز التدين، الأولوية للطبيعي، لا للمضاف!"

وقف أحمض وحك رأسه مفكرا في رد، ولكـــن رائـــده لم يمهله وانطلق ماشيا... فنظر أحمض إلى الفتاتين التين ســـقط في أيدهما، و لم تجف دمعوهما بعد، ولكن ماذا بوسعه أن يفعـــل؟ الرائعقلي يبتعد، وأحمض كأنه يريد أن يطيب خاطر الفتـــاتين، ولكن ماذا يقول لهما؟ النغصة في صدره تشتد... ولكن لماذا؟ إن الروضة قائمة على إفساح المجال لتحقيق إرادة الشخص حتى يرضى دون الاعتداء على إرادة الغير، فلهما أن يلبسا مـــا أرادا ولكن ليس في الأماكن العامة، فالروضة ليست ضد تدينـــهما، ولكنها تفسح المجال لكل من يريد أن يتـــدين أن يفعـــل دون الاعتداء على رودية الغير، والأولوية في النهاية للحالة الطبيعية، بلا إضافات... ثم قال في نفسه: "ربما أحتاج لـــبعض الوقـــف لهضم هذه المسألة... لقد ابتعد الرائد كثيرا!"

... القى أحمض نظرة أخيرة على الفتـــاتين البـــاكيتين، ثم هرول ليلحق برائده.

الفصل الخامس

الروضانية

مر أسبوعان منذ أن رأى أحمض فاتنـــة، وكـــل هـــذا و لم يتحدث إليها بعد، فقط كان يجمع كل المعلومات الممكنة حتى يدرس أفضل الطرق للفوز بقلبها. فلم يكن لأحمض أية تجارب في الحب من قبل، وذلك بسبب فرط خجله من الجنس الآخر، أو ربما بسبب قلة ثقته في مظهره الخارجي، المهم أنه قرر منـــذ زمن ألا يحب إلا من أجل الزواج، أما من أجل الترويح عـــن النفس، فلا. فكان أول ما وَرَد في ذهنه عندما رأى فاتنة هـــو الفوز بقلبها ثم الزواج منها. وقد اطمئن قلبه إلى خطة أعـــدها للتعرف عليها والحديث معها.

وأراد أحمض أن يقصر شعره ليتهيأ لهذا اللقاء الأول، فذهب إلى المكان المخصص لترويض الشعر ورياضته وطلب تقـــصير شعره.

مروض الشعر: "لماذا يا أهمت تكتفي بتقصير الشعر، لماذا لا تجعله لوحة فنية؟"

"إنني أخاف... لقد تعودت على تقصيره فقط."

"الكل يخاف أول مرة، ولكنها والله خير، والكـــل يقـــصر شعره حسب أشكال مختلفة، أنت الوحيـــد الـــذي يكتفـــي بالتقصير دون التشكيل!"

فكر أحمض ونظر إلى الطريق الخارجي من خـــلال المـــرآة العريضة ولاحظ بالفعل أن جميع المارين قد شكلوا شعرهم إلى لوحات فنية... "ماذا عندك من أشكال؟"

ابتسم مروض الشعر منتصرا وقال: "يوجد (موج البحـــر) و(نجوم الليل) و(سنام الجمل) و(عرف الديك) كما وصل إلينا شكل جديد اسمه (قواقع)!"

"قواقع؟؟" وقد بدا على وجه أحمض الاستغراب..

"نعم، ولكني لا أنصح به لأن شعرك غير مناسب له."

... فكر أحمض مليا، ثم هز رأسه وقال بثقة، كأنه يحـــاول مغالبة التردد ونزع القرار من ذهنه إلى لسانه: "نجوم الليل!!"

فرد المروض مبتسما: "حسنا، إذن فلنقصر على شكل نجوم الليل!"

وبدأ المروض بغسل الشعر، ونظر أحمض إلى نفسه في المرآة وأخذ يفكر... لماذا اخترت نجوم الليل دون الباقين؟؟؟ ولمـــاذا أشكل شعري أصلا؟؟ ولما لا؟ إلى متى أرفض التغيير... الكـــل يشكل شعره! ولا ينبغي أن أكون شاذا في المجتمع... أتريد أن تلفت الأنظار إليك يا أحمض؟ أفي قلبك رياء؟ لا.. إذا فلا تشذ عن الجماعة وقم بتشكيل شعرك!... ولكن لماذا نجوم الليل؟..

لماذا لم تختر شكلا آخر... وما هي البدائل... لقد نسيت الأسماء الأخرى... كان شيئا له علاقة بالماء... نعم... رمال البحر.. ثم انقطع تفكيره فجأة لما رأى عجينا اسودا يصب فوق رأسه..

"ما هذا؟؟!"

"هذه صبغة لشعرك.. إن شعرك مليء بالشعر الأبيض، كأنك كهل، وتقصيرة نجوم الليل تتطلب خلفية سوداء!"

سكت أحمض وهز رأسه مؤيدا، وقال في نفسه.. "قدر الله وما شاء فعل."

صبغ المروض شعر أحمض بالسواد، ثم تركه ليجف ثم غسله، ثم وضع فوق الشعر الأسود قطعة قماش بها ثقوب عديدة، وأخذ يخرج خصلات من الشعر الأسود من تلك الثقوب، حتى نظر أحمض إلى نفسه في المرآة فرأى ما يشبه القنفذ. ثم صُبغت تلك الخصلات بلون ذهبي، وأحمض من داخله يشد شعره وقد كاد يجن مما يحدث فوق رأسه، ولكنه تحلى بالهدوء والوقار كما هو شأن أي روضي متورد يقصر شعره على آخر الأشكال الفنية. ثم جُففت الصبغة الذهبية وغسلت، وقصر المروض شعر أحمض بعدها، فصار رأسه أسودا داكنا ومرصعا ببقع ذهبية.

تقبل أحمض ما حدث بروح رياضية وبارك له الرجل على "نجوم الليل"، وخرج أحمض إلى الطريق يخاف أن يعرفه أحد. وسار إلى بيته وهو يقنع نفسه أن كل شيء على ما يرام وأن شعره الأسود المرصع ببقع ذهبية، أفضل من شعره الشايب الذي أضاف عقودا إلى عمره، فالتورد ومجاراه آخر الأشكال وعدم الشذوذ عن مجتمع الروضة أفضل بالطبع من مظهر الشيخوخة الوقورة والشعر الأبيض.

***

ذكّر أحمض نفسه مرارا بأن عليه أن يترقق في الكلام كي لا تفضحه لكنته، فيجب أن يظهر بمظهر الروضي المتورد، فتوكل على ربه ووقف أمام فاتنة وقال مبتسما، "صباح الخير...اسمي أهمط،" وحمد ربه ثلاثا أنه لم ينطقها "أحمض"، وتابع: "كنت أريد أن أسألك لو معك كتاب الرائعقلي طوماص."

"تقصد تومَس؟ نعم عندي كتبه، أيهم تريد؟"

تردد أحمض، فقد أنساه الموقف أسماء الكتب فتدارك الموقف وقال: "جميعهم من فضلك.. لو أمكن... وسأعيدهم خلال ثلاثة أيام، فإنني أبحث عن شيء بعينه."

"عما تبحث؟ فلعلي أستطيع أن أحدد لك الكتاب الذي فيه المسألة."

احتار أحمض فيما يفعل، فالموضوع يتعقد، وهو لا يريد أن يظهر بمظهر الجاهل: "لا لا، لا عليك.. فقط أحتاج الكتب، فالمسألة التي أبحثها تحتاج للإلمام بتطور فكره عبر السنوات."

"عجيب... هذا بحث مثير! ما هي طبيعة المسألة، لقد أشعلت اهتمامي!"

أحمض: "في الواقع، الأفكار لا تزال غير مرتبة في ذهني، ولكن لأنك مهتمة فإنني سأحكي لك تفاصيل المسألة والبحث، في أقرب فرصة، ماذا لو جلسنا في رواق العقليات يوم الأربعاء، حيث أعيد لك الكتب وأحكي لك تفاصيل الموضوع؟"

"جميل! أنا مشتاقة جدا لمعرفة طبيعة بحثك... فأنا من معجبات تومَس، مع تحفظي على بعض آراءه!"

فالتقط أحمض الخيط وقال: "إذا فلنتناقش في بحثي، وفي تحفظاتك!"

فاتنة: "طبعا! قابلني هنا اليوم قبيل الغروب، ريثما أحضر لك الكتب!"

من حق أحمض الآن أن يشعر بالزهو، وأن يسير الخطوات التالية بخيلاء، فقد نجح بحنكته وسرعة بديهته أن يحول المأزق

إلى انتصار رائع! لقد نجح في جذب انتباهها واهتمامها! ولكن ظلت هناك مشكلة واحدة، فأحمض لا يعرف شيئا البتة عن هذا الرائعقلي المشهور... وعليه أن يقرأ كتبه ويستوعبها في ثلاثة أيام، لكي يجد ما يتناقش فيه ويبني على ما أنجزه حتى الآن... فمن الواضح أن الطريق إلى قلب فاتنة يمر بتومَس، "إذا، فلنفهم طوماص!"

***

قضى أحمض اليوم التالي منكبا على كتب طوماص يفك طلاسمها دون أية بوادر أمل في فهمها، فالمادة متقدمة جدا عليه وغير متعلقة بأي شيء درسه في المروضة حتى الآن. ولكن رغبته في إبهار فاتنة والوصول إلى قلبها كان دافعا قويا لفك هذه الطلاسم واستيعابها، فقرأ جميع الكتب مرارا حتى بدأت الأمور تتضح شيئا فشيئا.

ولاحظ أحمض ما اعتبره تناقضات في كلام الرائعقلي الشهير، فدوّن هذه الملاحظات، وظل يقرأ ويجاهد ويتأكد من حقيقة هذه التناقضات، فتارة يكتشف أن ما ظنه تناقضا ليس بذلك وإنما راجع إلى سوء فهمه، ولكن في بعض الأحيان تأكد من وجود تناقض حقيقي ورسخ هذا الانطباع في نفسه. وفي النهاية، بعد ثلاثة أيام من المجاهدة والرياضة العقلية المجهدة،

لخص أحمض ما خلص إليه. "إن طوماص يناقض نفسه في ثلاث نقاط..." وكتب هذه النقاط في ورقة وحفظها عن ظهر قلب، ثم أغمي عليه من الإجهاد.

استيقظ أحمض من نومه وتأكد من أن موعده مع فاتنة لم يحن بعد، اغتسل ولبس ثوبا ثم لاحظ أنه متسخ، فلبس غيره، ودهن شعره المقصر على شكل "نجوم الليل" ولبس نعله وخرج إلى المروضة وجلس في رواق العقليات... شعر أحمض بدقات قلبه تتسارع، وظل يراجع النقاط الثلاث، وكلما راجعها شعر بالفخر بهذا الإنجاز الكبير! لقد قرأ جميع أعمال طوماص واكتشف في كلامه ثلاث تناقضات، وكل ذلك و لم يكن يعرف عنه شيئا قبل يوم الأحد الماضي!

ورأى فاتنة آتية من بعيد، تمشي في ثقة وهدوء، وشعر كأن رخام المروضة يتنافس ويتحاسد، أيهم تطأ فاتنة عليه، فإذا ما نزل قدمها على قطعة رخام، رفعت يديها حامدة شاكرة... والنسيم الخفيف الذي يمر في أرجاء المروضة يلاعب ثوبها، يدخل تحتها ثم يبحث عن مخرج... واقتربت وحيّت أحمض بحماس اعتبرها هو دليل إعجاب، ثم جلسا وبدأ أحمض في الكلام: "اشكرك كثيرا على الكتب، لقد وجدت فيهم ضالتي."

"رائع! عن ماذا كان بحثك إذا؟"

"في الحقيقة، كنت قد لاحظت وجود بعض التناقض في كلام طوماص وأردت التأكد من ذلك وتدوين البرهان على هذا الخلل في فكره."

"تناقضات؟! ما هي تلك التناقضات؟"

شعر أحمض أنه نجح في إبهارها مرة أخرى، فبدأ يروي التناقضات الثلاثة كما لو كان رائعقلي زمانه، وبعد أن فرغ ردت عليه فاتنة: "... نعم... هذه التناقضات معروفة... لقد أشار إليها كل من جاء بعده... ألم تقرأ كتب أبو ورد وزلماي وسمث؟ لقد عابوا علي تومَس تناقضه في هذه النقاط وغيرها."

ثم عددت أربعة تناقضات أخرى، وأحمض لا يشعر إلا بالإحباط الشديد... ثم قالت: "ولكن هذا ليس المهم في كتابات تومَس، إن إسهامه الحقيقي والأهم في مجال العقليات هو رأيه في المرأة وأهمية تحرير إرادتها من قيود الأعراف!"

ثم بدأت في إلقاء محاضرة طويلة عن أثر فكر طوماص على الورادة ورودية المرأة، وكيف أن ما وصلت إليه المرأة اليوم راجع بدرجة كبيرة إلى أفكاره. وكل هذا وأحمض غير مستوعب لهذا الكلام، ولا يفكر إلا فيما أصابه من إحباط... لقد صام عن الأكل والنوم لمدة ثلاثة ايام حتى يخلص إلى هذه النقاط الثلاث، ليكتشف بعدها أنه لم يأت بجديد، بل وفشل

في اكتشاف سائر التناقضات! لقد قرأ جميع كتبه عدة مـــرات ولم يلاحظ أهمية كلامه عن المرأة! ولم يخفف من وطأة هـــذا الفشل إلا أن الجلسة مع فاتنة لا تزال مستمرة، وأنه لا يزال في حضرتها، فلنتعامل مع المستجدات، ونخرج منها بأفـــضل مـــا يمكن.

مضت الأيام وتوطدت علاقة أحمض بفاتنة، ولكـــن لـــيس على الوجه الذي تمناه، فقد أراد في بادئ الأمر أن يفز بقلبـــها ويبهرها، ليتزوجها ويعش معها بقية عمرهما، ولكـــن توالـــت المواقف التي ينقلب فيها إلى دور المتلقي وهـــي إلى الرائـــدة، وتحولت العلاقة إلى علاقة رياضة، وشعر أنها تنظر إليه كطالب رياضة مجد، لا أكثر.

وبذل أحمض جهدا كبيرا لتخطي هذا السقف ولكنه كـــان يفشل في كل مرة، وكانت تعيد دفة الحديث والموقف كله إلى موقف رياضة بين متريض ورائدة. ومما رسخ هذا الوضـــع أن أحمض حاول في مرة أن يتحدث عن حياته الخاصة وظـــروف نشأته لعل ذلك يساهم في إخراج العلاقة مـــن هـــذا الإطـــار الرسمي، فحكى لفاتنة عن أرضه وحادثة المروضين، حكى لهـــا عن أمه وأخوته ووفاة أبيه، إلا أن هذا زاد الطين بلة والواحـــة بُعدا، حيث حكت فاتنة عن أصلها المتورد، وأن أجدادها كانوا من كبار مديري الروضة المنتخبين من قبل الروضيين، فزادت الهوة بينهما. ثم عرف أنها تكبره بسنتين، فزادت أكثر وأكثر.

إلا أن أحمض لم ييأس، وتجرأ وبدأ يسألها عـــن صـــفات الزوج التي تتمناه، لعلها تعدد صفاتا يجدها في نفـــسه، وإن لم يجدها اكتسبها. فتعجبت من السؤال، وقالت: "وهل تظن أنني أنتظر زوجا يأتيني لكي اقارنه بما وضعته من صفات؟"

رد أحمض مستغربا: "أوليست كل فتاة تتمنى الـــزواج وأن يأتيها الرجل المناسب على حصان أبيض، كما يقولون؟"

"تتمنى الزواج؟ حصان أبيض؟؟ ولماذا لا تأتي هي إلى الرجل على الحصان، هل الرجل خير منها، أو أقدر على ركوب الخيل منها؟؟"

ارتبك أحمض وقال: "لم أقصد، إنما قصدت أن الطبيعي أن المرأة تتمنى الزواج وتنتظر اليوم الذي يـــأتي فيهـــا فارســـها ليأخذها."

فهزت رأسها في عنف واستنكار: "لا! بـــل هـــذا تفكـــير ذكوري! لعلك لا تزال متأثرا بأصلك الأرضي!"

شعر أحمض وكأنه أفسد كل شيء وأنه قد أغضب حبيبته فقال نافيا: "لا لا، لست ذكوريا على الإطلاق، بل إنني تربيت على يد أمي! لا لا، أبدا والله لست ذكوريا، أنا فقط أبـــدي رأيا على سبيل الجدال، ولا أعبر عن رأيي أنا بالـــذات، أنـــا لازلت أفكر في الموضوع و لم أتخذ فيه رأيا بعد."

فقالت فاتنة في لهجة مروضة: "إن المرأة مثل الرجل تماما، وإن كان بعض المجتمعات تفرق بينهما في الوظائف، فذلك يعود إلى العرف، والأعراف تتغير وتتورد مع إقبال الناس على الرياضة. إن الرجل الذي يرى في نفسه ميزة على المرأة في أي شيء إنسان ريِّض مريض، يفتقر للترويض والرياضة. وحتى لو فرضنا جدلا أن رجلا ما أقوى من الناحية البدنية من زوجته، فمجرد تفكيره في هذه الميزة دليل على نقصه وتزعزع ثقته في نفسه!"

انبهر أحمض بثقتها في نفسها وانجذب إلى كلامها وقوة حجتها، ثم أراد أن يؤكد لها أنه لا يخالفها في الرأى فقال: "للأسف إن الإنسان منذ صغره ينشأ في بيئة تفضل الرجل على المرأة، فيظن أن هذا هو الوضع الطبيعي... إن الكثير من المجتمعات تجيز للفتى أن يتأخر خارج البيت إلى الثلث الآخير من الليل، أما الفتاة فإنها لا تخرج إلا بين الظهر والعصر ومعها محرم!"

فتحمست فاتنة وردت منفعلة: "تماما! هذا ما أقصده بالمجتمع الذكوري المتحيز ضد المرأة، إنه مجتمع مريض!! ترى الفتى يصاحب فتاة ولا يرى حرجا! ولكن إذا عرف أن أخته تحب شخصا ما أقام الأرض و لم يقعدها، كأن شرفه تمرمغ في التراب! وينسى أنه قد مرمغ شرف غيره من قبل! إنه تفكير أريّض قبيح! ومن واجبنا أن نفك أسر هؤلاء النسوة الاتي كُبِّلت إرادتهن فصرن كالإماء!"

ردد أحمض في نفسه"... نعم! إلى متى تعامل المرأة كالأمة؟ لماذا لا تُحترم إرادتها؟؟ لماذا نسمح للرجال بتحقيق إرادتهم على حساب إرادة المرأة، أليس هذا تعارضا واضحا وفاضحا مع الرودية والقيم الورادية؟ اللهم استخدمنا لنشر الورادة في الأرض ومساعدة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا!"

***

"هذا آخر موضوع لنا في هذه المادة يا أهمت، وهو تتمة القاعدة الأم التي استفضنا في شرحها طوال الأسابيع الماضية، إذ تقول "وحاميتها الرَوْضَانية"."

تابع الرائعقلي شرح دروس القاعدة الأم قائلا: "الروضانية هي التي تحمي الرُودية وبالتالي تحمي الرَوَاضة بأسرها. وتحمي الروضانيةُ الرُودية من خلال ضمان إتاحة سبل الوَرَادَة والوَرَداية، فلا قيود على نوع الرياضات ولا قيود على وسائل الوَرَادية، طالما أنها لا تتعارض مع رُودية الناس ولا تقيد إرادتهم. أي أننا نستطيع القول أن الرَوضانية هي مجموعة القيم والمبادئ التي تحمي رَوَاضَة الروضة من خلال الحفاظ على دوام رُوْدية الأفراد. وبما أن الرودية الحقيقية تحتاج إلى ورادة وورادية، فإن بينهما وبين الروضانية علاقة وثيقة."

واستمر الرائعقلي في شرح هذا الدرس وتطبيقاتـــه طـــوال الإسبوع، وقد كان آخر اسبوع قبل العطلة. لقد مرت المـــدة التي قضاها أحمض في الروضة بسرعة هائلة، وحان موعد زيارة الأم والإخوة وسائر الأهل والأصحاب.

الفصل السادس

الرودة

استغرقت رحلة أحمض إلى روضة أهله يومين، قضاهما وهو يفكر في فاتنة، أي أنه قضاهما حزينا. لقد كان الشهر الأخير في المروضة صعبا للغاية، فكل يوم كان يشعر بأن حجمه يتضائل أمامها وإن كان الحب يزيد. لم يفرح بالعطلة لكونه سيعود ليرى أمه وأخوته، وإنما لأنه أراد أن يخرج من الروضة التي شعر فيها باختناق. كان مزاج أحمض العام سيئا، كان مكتئبا.

لاحظ أحمض التطور الواضح الذي حدث خلال الفترة التي قضاها خارج الروضة، فصارت أجمل وأورد من ذي قبل. صحيح أن شكل الناس صار مضحكا، كأنهم نسخة باهتة من أهل روضة الرياض؛ الملابس الوردية، والشعر المقصر على شكل سنام الجمل، ولكن التصرفات هي هي، غير متوردة وإنما أرضية صميمة، صار الناس يتحدثون بكلنة الروضيين، ولكن طريقة تناولهم للموضوعات كانت كما هي، طريقة أرضية بحتة.

أتاحت الروضة مساحة من الرودية غير مسبوقة، مساحة تسمح للجميع بتحقيق إرادتهم، ولكن من الواضح أن الناس أقبلوا على الرودية دون ورادة ترشدهم، واعتبروا كثرة البدائل التي وفرتها الورادية، لا فرصة للاختيار وإنما للإكثار، فصارت

بيوت الناس كمغاراة علي بابا فيها من كل بستان وردتين أو ثلاثة، وصار الناس يمشون في الطرقات كأنهم محل للملابس، بعدما كانوا في عهد قريب يكتفون بثوب بسيط، إن وجد أصلا.

شعر أحمض وهو يمشي في طرقات روضته الممهدة أنه في مسرحية هزلية مضحكة مبكية، كان الناس قديما كنباتات الصبار برائحة نفاذة أصيلة تطرد عنها الحشرات، واليوم صاروا وردا مشوها دون رائحة كساها ذباب الروضة بطنينها البذيء. كانت أخلاقهم في السابق حامية كالإبل، فصاروا اليوم كالقردة. ما هذه الروضة الممسوخة؟ وظل ينظر إلى المكان بنظرة قاتمة.

***

"ولما لا يا أمي، ألم يتزوجا عن تراض؟ فلهما أن ينفصلا عن تراض!" كان أحمض في حوار حام مع أمه حول موضوع حساس، فأخته على خلاف مع زوجها؛ تريد الخروج للعمل، وهو يرفض، يقول إنه لا داع لخروجها ما دام يكسب ما يكفيهم، وهي مصرة على أن الأمر لا يتعلق بالحاجة المادية، وإنما بممارسة الرودية واكتشاف إرادة الإنسان وتحقيقها. وأمام تصلب الزوج، هددته زوجته أن تذهب إلى إدارة الروضة وتطلب الطلاق منه بحجة أنه يقيد إرادتها. فرأى أحمض المتورد أن هذا حقها طالما أنه وقع عليها مثل هذا الظلم.

" انظر ماذا تقول يا أحمض! تخرب بيتها بيدها وتقــول لي عن تراض؟"

"يا أمي إنها لم تعد تريده، فهو يتسلط عليها ويمنعهــا ممــا تريده، وما أرادت شيئا محرما."

"ولكنه زوجها يا ولدي، له أن يأمر ويطاع!"

خاف أحمض أن تسمع فاتنة هذا الكلام فرد، كأنها تتحدث من خلاله، "ولماذا لا تأمر هي وتطاع؟"

"أمرك عجيب! له القوامة!"

"يا أمي، القوامة هذه مكتسبة، وليست أصيله، هو إن أنفق عليها كانت له القوامة المادية، ولكنها تعمل وتكسب وتنفــق على البيت، فلها قوامة كذلك."

"ولكنه يرفض أن تعمل!"

"وكيف يمنعها ويعيق إرادتها؟"

نظرت الأم إلى ابنها مستنكرة، وقالت في حــسرة "لقــد ظننت أنك ستتدخل لتُعَقِّل أختك وتساعدني في الحفاظ علــى بيتها!"

رد أحمض في لهجة حانية، "يا أمي، إنها عاقلة، وتدري مــا تريد، وتدري أن لها أن تسعى لتحقيق ما تريد مــا دامــت لا

تعتدي على إرادة غيرها، أما زوجها فهو الذي يسعى إلى تحقيق إرادته على حساب غيره..."

أشاحت الأم بوجهها قليلا ثم التفت إليه في حدة: "ومـــاذا عن إرادة الطفلين؟؟ أليس لهما إرادة؟ أتظن أنهما يريـــدان أن ينفصل أبويهما ويَنْهَدّ بيتهما فوق رؤوسهما؟"

احتار أحمض في هذه المسألة، فلم تمر عليه مـــن قبـــل. إن الزواج تم برضا أخته وزوجها، ولهمـــا أن ينـــهياه بإرادتهمـــا ورضاهما، ولكن هذه الزيجة أسفرت عن طفلين تأثرا بهذا العقد دون أن يعرف موقفهم منه... فهل لهما أن يطلبا إدراجهما في العقد أم لا؟ فقال في نفسه: "إنها مسألة تحتاج إلى تفكير، ترى ماذا يقول الرائعقلي سليم؟ أم لعلي أسأل فاتننة، فلعلها تـــسعد بهذه المسألة الشيقة..."

"عموما يا أمي سأتحدث إلى عصماء وأحاول أن استرضيها، وربنا يعمل ما فيه الخير."

ولم ترد عليه أمه، بل أشاحت بوجهها في حزن ونظرت من الشباك إلى جدول الماء بالخارج.

ومرت العطلة ببطء شديد...

تنفس أحمض الصعداء وهو يخرج من روضة أهله عائدا إلى روضة الرياض، فلم يعد يـــشعر بالراحـــة في هـــذه الروضـــة الممسوخة، الذي تحول فيها رعاة الإبل إلى قردة.

وانتظم أحمض في الرياضات العقلية الجديدة، وبـــدأ مـــع الرائعقلي سليم مادة "الترويض" وهي مادة لا يدرسها إلا مـــن يُرى فيه مبشرات الريادة وإدارة الرياض. وفي يوم من أيام أول اسبوع قال الرائعقلي: "بعد أن شـــرحنا القاعـــدة الأم ودور الإرادة في حياة الإنسان ونظام الروضة، سنتكلم عـــن أهميـــة اكتشاف الإنسان لإرادته. فالإرادة أهم ما للإنسان، فبها يؤمن بخالقه إيمانا صادقا، وبها يروض نفسه ويوردها، وبها يـــروض الأرض لتصبح روضة رائدة. فالإرادة أكبر رِوْضَة أنعم الله بهـــا على الإنسان. والله تعالى قد أسبغ على الإنسان رِوَضَه ظـــاهرة وباطنة، وإنك يا بني إن حاولت أن تعد رِوْضَةَ الله لن تحصيها عددا. والله يحب أن يرى أثر رِوْضَتَه على عبده."

أعادت هذه الجملة الآخيرة ذكريات المروضين الـــشهداء، وبالتبعية ذكريات الحاج عوض والفتنة التي حـــدثت في الأرض بسببه. فظلت هذه الذكريات معلقة في ذهنه والرائعقلي يتـــابع شرح الدرس.

"ولا حرج إطلاقا في إرادة الرِوَض والسعي في طلبـــها. إن رواضتنا تعلمنا السعي إلى رِوَض الله والإكثار منـــها، لأن الله خلقها لنا، وعلينا كذلك أن نأخذ بيد من لم يكتـــشف هـــذه الرِوَض ونُرَوِّضَه حتى يستطيع أن يستفيد منها، فبذلك يظهـــر

أثر رِوْضَة الله على الأرض وتتحول الأرض كلها إلى رياض متوردة، وبالطبع هذا يرضي الرب ولا يغضبه، ألا يحب الله أن يرى أثر رِوْضَتَه على عبده؟"

أيقظ كل هذا الكلام ذكريات مؤلمة في ذهن أحمض، فرأها فرصة للإجابة على أسئلة كثيرة ظلت تحيره، فسأل: "ولكن، ماذا لو تطلب هذا الترويض تغيير طريقة عيش الناس، وهم يرفضون ذلك؟"

"يا بني، من الطبيعي أن يخاف الإنسان مما يجهله، ولكننا كرواد متوردين، نعلم أن من مصلحة الأرْياض أن يُرَوَّضوا حتى يستشعروا بفيض رِوَض الله ويستفيدوا منها. قل لي، إذا رأيت شخصا مغمض العينين مكبا على وجه يتخبط بين الناس، ولا يدري أنه إذا ما فتحهما سيرى ما حوله، ويمشي سويا في خط مستقيم، أليس من واجبك كروضي متورد أن تلفت نظره إلى هذه الرِوْضَة، رِوْضَة الإبصار، لكي يصلح حاله؟ هل ستتعلل بأن لعله سعيد بذلك الوضع؟ أليس الأفضل له، وللآخرين الذين يتخبط فيهم أن يفتح عينيه ويستفيد من هذه الرِوْضَة، رِوْضَة البصر والإبصار؟"

سكت أحمض وهز رأسه إيجابا، فالكلام مقنع، ثم أكد الرائعقلي كلامه بمثال آخر: "إذا رأيت إنسانا لا يكتب ولا

يقرأ، ألا تظن أن التعلم فيه فائدة له؟ ألا ترى أنه إذا أصر على جهله فإنه يسيئ إلى نفسه؟ إن في التعلم رياضة للعقل وطلب الرياضة فريضة على كل روضي، رجلا كان أو أمرأة؟"

ثم أتبع بتفسير مختلف ولكنه يؤيد نفس الرأي، "ثم إن الذي يرفض التورد سيضر بأهل الروضة المتوردين، والرياض إن لم تُرَوِّض ما حولها من أراض، فستزحف تلك الاراضي عليها وتدمرها. ثم إن الله يرضى عن الذين يستفيدون من روَضِه ويحبهم، ولئن شكروه ليزيدنهم. والأرْياض الذين يقاومون الترويض لا يقاومونه عن مبدأ، وإنما لمجرد أنهم يخافون الجديد ويقدسون التراث البالي القديم، ويظنون أن رضا الله في تمسكهم بماضيهم، ويجهلون، أو يتجاهلون أن الله سخر لنا الأرض لنروضها ونستفيد منها، وميز الإنسان بالعقل ليستخدمه في إبتكار الجديد، لا لمجرد حفظ القديم، وأن على الإنسان أن يجاهد نفسه ويقبل على شتى الرياضات، البدنية منها والنفسية والروحية، وكذلك العقلية، ليتحقق فيه معنى الريادة بين سائر المخلوقات."

شعر أحمض بأن سيلا من الحجج تنصب فوق رأسه ولا يقدر على استيعابها كلها، ولكنه ظل يهز رأسه إيجابا وظل الرائد يقذفه بالحجة تلو الحجة ليدمغ الشك في قلبه ويزهقه: "أما هؤلاء، فقد رضوا بالخلود إلى الأرض ورفضوا أن ينفروا في سبيل التورد والازدهار، وهم إن رضوا بهذا المصير البئيس،

فإن رواضتنا تأبى ذلك، ولن نسمح لهم أن يقفوا في طريق ترويضنا للأرض ورياضتنا للإنسان، فلن نقبل بأن يقف الأرياض في طريق ريادتنا. وسنأخذ بأيدهم، أو نضرب عليها، حتى نفتح أعينهم إلى ما يرفضون رؤيته، وإلى أسمى معاني العيش والحياة، وسنحررهم من قيود التراث التي تكبل إرادتهم، لكي يمارسوا إنسانيتهم على أتم وجه. وهذا، بكل تأكيد يرضي الله."

ولكن الذكريات المؤلمة بدأت تتوالى على ذهن أحمض، فسأل مستوضحا: "ولكن ماذا لو أنه لا يريد فك قيود إرادته؟ أترغمه على ذلك وتعتدي على إرادته؟ أليس في ذلك تناقض مع قيم الرودية وقاعدة عدم الاعتداء على إرادة الغير؟"

"يا بني لا تناقض، إن حبيس الإرادة لا إرادة له لكي "لا يريد" فك هذه القيود. كيف يريد شيئا وإرادته مكبلة إلى الأرض بقيود التراث والماضي؟ دعنا نفك قيوده ونحرر إرادته ليكتشفها، ثم نسأله، "ها، أتريد البقاء هكذا، أم تريد أن ترجع إلى القيود؟" ولا أظن أن من رأى بهجة الروضة سيرضى بخشونة وحموضة الأرض."

فسأل أحمض مجادلا: "وإن فككنا قيوده وحررنا إرادته، ورغم ذلك لم ينجذب إلى الروضة والورادة؟"

فرد الرائعقلي مباشرة: "هنالك، إن آثر الأرض على الروضة فهذا اختياره، ولكن عليه أن يعيش بعيدا عن الرياض وألا يقف في طريق رواضتنا وترويضنا للأرض، هــو أخلــد إلى الارض، ونحن نسعى إلى الريادة، ولن نقبل أن يعطلنا أحد عن هدفنا."

وكان الرائعقلي متفهما لأسئلة أحمض، فقد علم قصة أهله مع الترويض وتوقع أن هذه الأسئلة نابعة من شك أو حيرة تجاه مسألة التوريض لما رأى من قتل ودم يحيط به. فقال له في نبرة أبوية هادئة: "يا أهمت، هذا والله خير، أينزل الله علينا كل هذه الروَض، فنهملها ولا نأخذها ونستفيد منها، أفي هذا أدب مع اللهَ؟ إن الله..." فقاطعه أحمض بابتسامة باهتة: "نعــم، نعــم أعلم... إن الله يحب أن يرى أثر رِوْضَته على عبده."

"أحسنت يا أهمت، لقد بدأت تفهم ورادتنا! بالمناسبة، أنــا سعيد بنتائجك في المواد السابقة، وأنا أتوقع لك مستقبلا رياديا ورديا!"

***

مضى أسبوعان منذ أن عاد أحمض إلى المروضة ولم يــرى فاتنة، "ربما أطالت عطلتها وسافرت إلى بعض الرياض البعيــدة كما هو عادتها..." كان يفكر فيها كلما ضرب على العــود، كان يشعر باشتياق لها... بحنين إلى رؤيتها.

بدأ تورد خدي أحمض في التلاشي شيئا فشيئا، فكأنه حزين باستمرار، كان يظن أنه بمجرد عودته إلى الروضة سيينتعش، ولكنه ظل كئيبا، ربما لغياب فاتنة.

قال الرائعقلي ذات يوم: "سنتحدث اليوم يا أهمت عن الرودة.. أتدري ما الرودة؟"

تعجب أحمض من السؤال ورد: "الروضة هي المكان الذي نعيش فيه."

"لا يا أهمت، تلك هي الروضة، وإنما أسألك عن الرودة.."

هز أحمض رأسه نافيا علمه بمعناها. فتهيأ الرائد وعدل من مجلسه وأخذ نفسا وشرع كأنه سيفسر كلمة في الكتاب المقدس وقال: "الرودة هي هدف كل روضة وكل روضي. والمروض يروض الأرض حتى تصير روضة وأهلها روضيين، ثم إن الروضي يقبل على الرياضات المختلفة حتى يصير رائدا، فإذا ما صار جميع الروضيين روادا، وصلت الروضة إلى مرحلة الريادة حيث تزدهر ورادها وتبلغ وراديتها مداها. عندئذ، عند تمام التورد، تنقلب الروضة إلى رودة، فالرودة هي الهدف الأسمى والتتويج لرواضتنا. تماما، كما أن الوردة هي تاج الشجرة وأجمل ما فيها."

وفجأة، شعر أحمض بنغصة في صدره، سرعان ما تطورت إلى تقلص في أمعاءه، وبدون أي سابق إنذار، اندفع القيء من فمه وانتشر في أرجاء المكان، وتلوثت ثيابه الوردية ونعليه بقيء داكن قبيح الرائحة. صاح الرائد منفزعا: "ما هذا يا أهمت؟!"

"لا أدري يا رائدي... اغفر لي... ماذا حدث لي؟ سامحني يا رائدي..."

وقام أحمض لينظف ثياب رائده ونعليه ... فقاطعه: "مهلا يا أهمت دعك مني.. هل أنت بخير؟ ماذا أكلت في الفطور؟"

"لا أدري يا رائدي... سامحني لا أدري ماذا حدث..."

"لا تقلق يا بني .. لا تقلق. اذهب واسترح وخذ الغد راحة.. وسأمر عليك عصرا لأطمئن عليك.. قم يا أهمت واذهب واسترح."

قام أحمض وشعر كأن الغرفة تدور من حوله، فاستند إلى الحائط واندفع خارج المكان وهو يترنح... والتفت الرائعقلي إلى القيء الذي ملأ المكان فشعر بتقزز وخرج هو الآخر ليغير ثيابه ونعله.

الفصل السابع

عود

استلقى أحمض على سريرة ينظر إلى سقف غرفته... "ترى أعادت فاتنة؟ هل ستزوني؟ ماذا يحدث لي؟ إن الحزن لا ينفك عني، ربما أحتاج لفاتنة..." وظل يداعب أوتار العود وهو ملقى على سريره ويضرب ألحانا من مقام الصبا وهو مغمض العينين... كان يشعر وهو يضم العود إلى صدره بأنه يضم محبوبا أو يهدهد طفلا... عجيب علاقة أحمض مع العود.

مر الرائعقلي على أحمض عصرا كما وعد، ومعه رائبدني ليطمئن على التلميذ النجيب. وبعد بعض الكشوفات والأسئلة خلص الرائبدني إلى أنه سليم بدنيا، وإن استمرت الأعراض فالأفضل أن يعرض على رائنفسي، "فلعل المشكلة نفسية لا بدنية." ولاحظ أحمض القلق على وجه رائده عندما سمع كلمة الرائنفسي، "لا لا لا، إن شاء الله سيقوم ويتعافى دون الحاجة إلى رائنفسي." واستأذن الرائعقلي وخرج مع الرائبدني وهو يطلب منه شرحا أوفى لحالة أحمض.

وبعد فترة وجيزة دخل رجل آخر، ظن أحمض أنه الرائنفسي "فلعل الرائعقلي اقتنع أخيرا بجدوى أو ضرورة

إرسال رائد في النفسيات،" تأمل أحمض الرجل بثوبه الأخضر، وعمامة خضراء يخرج من تحتها شعر أسود مضفر، تفوح منه رائحة عطر خفيفة، وعلى وجهه ملامح الهدوء والسكينة.

وقف الرجل وقال: "سمعت أنك تقيأت اليوم"

أحمض: "نعم، أثناء الدرس."

الرجل: "وهل كان يشرح درس الرودة – بالدال؟" شعر أحمض بغم حل عليه فجأة عندما سمع تلك الكلمة ولكنه تغلب على الشعور وأومأ بالإيجاب.

الرجل: "وماذا قال الرائبدي؟"

أحمض: "قال أنني سليم بدنيا."

الرجل: "أنت هاجرت إلى هذه الروضة من أرض حديثة الترويض أليس كذلك؟"

"بلى."

الرجل: "والترويض لم يحدث هدوء، وإنما بعد فتنة ومعارك."

شعر أحمض ببعض الغرابة في طريقة الرجل في إلقاء الأسئلة ولكنه أجاب: "نعم هو كذلك."

فتابع الرجل: "قد عدت للتو من زيارة لها أليس كذلك؟"

"بلى."

سكت الرجل قليلا ونظر حوله وتفحص غرفة أحمض بعينه، ولسبب ما قرر أحمض أن يبادره هو بالسؤال فقـال: "أنـت الرائنفسي أليس كذلك؟"

لم يرد عليه الرجل بل فآجأه بسؤال آخر وأخـير: "أنـت تحب إحدى فتيات الروضة، ولكنها لا تبادلك الشعور، ألـيس كذلك؟"

شعر أحمض بوهن وضعف عندما تـذكر فاتنـة، فأومـأ بالإيجاب.

هنالك هم الرجل بالخروج، وهو يقول: "الآن فهمت سبب تقيئك، شكرا على وقتك وتعاونك."

احتار أحمض من هذه الجملة فكرر سؤاله: "ماذا أصـابني أيها الرائنفسي؟"

فالتفت إليه الرجل مبتسما: "يا هذا، لست رائنفسيا، بل إن مثلي، إن عثر عليه فسيحبس في مصحة الروضة فورا!"

خاف أحمض من الرجل لأول مرة بعد أن كان قـد بـدأ يطمئن له: "إذا من أنت؟"

فأجاب: "أنا مجرد رجل مهتم بحالات التقيء التي تحـــدث، من الواضح أنك حالة طبيعية جدا من حالات حمى الروضة."

ثم التف إلى أحمض بجسده كله وقال كأنه يسدي إليه خدمة لا يسديها لأي متقيء في العادة: "انظر يـــا أحمـــض، إنـــك ستموت إن بقيت في هذه الروضة، قلبك رفضها من قبـــل أن تدخلها، ولكنك تحايلت عليها بحبك لإحدى فتياتها، ولكنها لا تبادلك الحب، فاستمع لقلبك واخرج من الروضـــة قبـــل أن يعاودك التقيء فتحبس في مصحة الروضة."

صدم أحمض من هذا الكلام... "كيف أرفـــض الروضـــة؟ بالطبع لا أرفضها، هذا كلام فارغ. من ذا الـــذي يـــرفض أن يعيش في روضة الرياض ويتريض ليصبح رائدا متوردا؟؟" وهم أن يجادل الرجل في نظريته، ولكنه لم يمهله وخرج من البيت.

***

مر يومان شعر بعدهما أحمض أنه أفضل حالا فقام وقرر أن يعود للرياضة، ودخل المروضة فشعر بدقات قلبـــه تتـــسارع، ففهم أن فاتنة قريبة منه وإن لم تره عيناه. بحث عنها كالمجنون، وظل يمشي مسرعا بين الأروقة، وينظر كأنـــه يـــسأل صـــور الرائعقليين عن مكانها، حتى سمع ضحكتها على شمالـــه فنظـــر فوجدها واقفة مع أحد الرواد. لمحت فاتنة أحمـــض وبالكـــاد

حركت طرف شفتها الأيمن فيما يمكن تفسيره – بتكلف – على أنه ابتسامة، وآثر أحمض أن ينتظر انتهائهما من الكلام. ولكن الكلام طال، ثم انقلب إلى جلسة رياضة، فتضايق أحمض من هذا الإهمال وخاف أن يتأخر على رائده، فترك المكان وذهب إلى الدرس.

وما أن بدأ الرائد في إعادة درس "الرودة"، إلا وبدأ شعور بالغثيان يحل بأحمض، فأشار بيده، يستأذن في الخروج لحظة، و لم يفهم الرائد قصده، ولكن أحمض لم ينتظر، وقام من فوره وجري خارج الرواق وتقيأ مرة أخرى. تقيأ على رخام المروضة... ذلك الرخام الذي كان يحمد الله على نعل فاتنة إذا وطأته، صار يلعن أحمض الذي تقيأ عليه..

واجتمع الناس، وانتبهت فاتنة إلى ما حدث وأتت مع رائدها تقف مع الناس حول أحمض، وهو يحاول تنظيف ثيابه ثم ينظر في وجوه الناس خجلا. والناس لا تنظر إليه بعطف، وإنما بخوف وريب، "ترى أأصيب بالحمى؟؟ هل نبلغ الإدارة؟" وجاء رجلين ومعهم ممسحة لينظفا المكان. وانتظر أحمض مجرد كلمة رفق من فاتنة، ولكنها انصرفت مع بقية الناس.

ووقف أحمض وسط قيئه، لا يدري ماذا يفعل أو أين يذهب. لم يرد العودة إلى رائده، ... فكر قليلا ثم قرر أن أن يذهب إلى غرفته.

تبعد غرفة أحمض عن المروضة بمسافة قليلة، لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، ولكن أحمض عندما خرج من المروضة، سار بشكل لا إرادي من الطريق الطويل جدا، حيث أنه تعود أن يمر على بيت فاتنة في كل مشوار. ومشي وكلما اقترب من شرفتها تمنى معجزة توقع فاتنة في حبه، ومر أمام مدخل البيت فوجد فاتنة واقفة مع الرائد يستكملان حديثهما، ثم لاحظا مروره وهمست فاتنة في أذن الرائد، ولكن أحمض لم يقدر حتى على الوقوف، بل ظل في طريقه كأنه لم يقصد رؤيتهما أو لم يهتم، وآلاف الأفكار تموج في صدره، "ماذا قالت له عني؟ كيف تفكر في؟ ماذا يمثل هذا الرائد لها؟..."

وبعد قليل انتبه أحمض أنه لا يدري أين هو... فقد أخطأ المسير وتاه في الروضة.. ورجع من حيث أتى ولكنه شعر أنه يتوغل أكثر فأكثر في المجهول. فجلس على الرصيف من التعب وبدأ يبكي.

التف الناس حوله بعطف، "ماذا حدث يا ابني؟ لماذا تبكي؟" وربتت أم على كتفه في حنان، ثم ارتفع صوت أحد المارة... "ابتعدوا عنه!! إنه مصاب بحمى الروضة، رأيته يتقيأ اليوم في المروضة!!" هنالك انقلب كل شيء، فانفض الناس من فورهم وجرت الأم تلملم أبناءها وتدخلهم البيت كما تفعل الفرخة

بأفراخها إذا ما أتى الذئب، وخلا المكان من النـــاس وبقـــي أحمض بمفرده، في مكان لا يعلمه، فأجهش بالبكاء.

ورأى أحمض من بعيد رجالا عرفهم بسيماهم، هم رجـــال المصحة، "مؤكد أنهم جاءوا من أجلي!" فجـــري في الإتجـــاة العكسي وهو يفكر في نفسه أنه إن ظل يجري فسيصل حتمـــا إلى سور الروضة، وظل يجري ويدخل في طرقات ويخرج منها، وسأل رجلا واقفا عن طريق بوابة الروضة فأشار إليه، فانطلق في تلك الناحية وظل يجري، ثم انتبه أحمض إلى أن الرجل الذي سأله كان يلبس ثوبا أخضرا وعمامة خضراء... ولكنه لم يقدر على مواصلة التفكير، فكل ذرة في جسده مسخرة من أجـــل الهرب من هذا الجحيم، وتمزقت النعال مـــن ســـرعة الجـــري ولكثرة القفز، وصار يجري حافيا... ورأى البوابـــة وباغـــت حراسها وقفز فوقهم وخرج من الروضة إلى الصحراء... خرج من الأشجار والأنهار إلى الرمال والصخور.. خرج من الروضة وعاد إلى الأرض...

مشي أحمض شرقا في طريق روضة أهله وهو يبكي .. بكى أحمض... بكى كثيرا.. شعر بانكسار وذل.. لم يكن يفكر في شيء إلا أنه كان يريد أمه، كان يريد حضن أمـــه... "أريـــد أمي! أريدها أن تزملني... أريد أن أبكي في صدرها... أريدها

أن تطمئنني إلى أنني لازلت ابنها، وأن كل شيء سيكون على ما يرام.. أريد أمان أمي... أنا لم أعد أفهم شيئا.. أمي تعرف كل شيء، هي دائما على صواب، أريدها أن ترشدني... أريد أمي. أريدها أن تقول لي أنت كذا وكذا وعليك أن تفعل كذا وكذا، وسأفعل كل ما تأمر به... لن أفارقها أبدا! أريد أمي.. يا أمي أين أنت... تعال الحقي ابنك.. أميييي!!!"

ومشي أحمض عاري الصدر حافي القدمين... مشي كالميت وقد خرج من قبره.. سار في الصحراء وكل همه أن يرتمي في حضن أمه. ودخل الروضة الممسوخة، والناس تنظر إليه، والكل لسان حاله يقول "مسكين أحمض... إن مصيبته ليست هينة" ولكنهم لم يعرفوا ما أصابه في روضة الرياض، وأحمض لم يعرف ما أصابه في الروضة الممسوخة، حتى وصل إلى بيته وطرق الباب ففتحت أخته وهي متشحة بالسواد وما أن رأته إلا وانفجرت بالبكاء... فقد ماتت أم أحمض.

وعلم أحمض أنه لن يجد ذلك الحضن الذي يؤويه... ولا الأمان الذي يحميه... فقد ماتت أم أحمض.

***

مرت خمس سنوات... بلا طعم أو رائحة، تزوج خلالها أحمض من قريبته صُمَيّة، وعاش في الروضة الممسوخة منعزلا

إلى حد بعيد، ثم ضاقت به و لم يتحمل قردة الروضة الممسوخة ولونها الوردي المتسخ، فهاجر مع زوجته وابنتــه، هــاجر إلى أرض فلاة، بسيطة وهادئة ورضي بها ورضت به.

وسمحت له هذه الخلوة أن يفكر في ماضــيه وتجاربــه في الحياة، فتوصل إلى تفسير مُرْض وشاف لكثير مــن القــضايا، توصل إلى أن مشكلة الروضة تكمن في اعتقاد الروضــيين أن رواضتهم في زيادة مستمرة، ونسوا أنهم مرحلة في دورة، وأنهم إذا ما تفتحت روضتهم يوما وتحولت إلى رودة فإن الوردة إذا ازدهرت لا تلبث أن تذبل وتسقط وتعود للأرض التي خرجت منها، لتبدأ الدورة من جديد، ولكن الروضيين عن هذه الحقيقة غالفين.

وكلما راجع أحمض هذه الحقيقة ابتسم ابتــسامة خفيفــة، كأنه يقول "مساكين أولئك الروضيين، والحمد لله الذي نجانــا من الروضة المريضة."

وتحولت حياة أحمض إلى ما يشبه حياة النساك المنعزلين عن عالمهم الخارجي، لم يعد يحفل بما يحدث خارج نطــاق بيتــه المتواضع، الذي بناه بالطوب، و لم يشعر بأنه يفتقد شيئا أو أنه قد فاته ركب التورد أو ما شابه ذلك، لم يندم على قرار الهجرة لحظة واحدة، فقد ارتضى أن يبتعد عن كل أولئك الــواهمين

المفتونين بالروضة والرواضة، كلما خطروا في ذهنه ابتسم ونظر إلى الصحراء الشاسعة وردد، "لكم روضتكم ولي أرضـــي، إن كنتم رضيتم بالوردي، فقد رضيت بالأبيض."

كان يقضي جل أوقاته في التأمل والمشي حافيـــا لأيــام في الصحراء والجبال، ثم يعود لزوجته وابنته فاطمة. كان يجلـــس معهما حول نار صغيره تحت نجوم الليل، ويضرب على عـــوده ألحان الاشتياق الأبدي والحنين السردمي، حنين إلي أمان رحم الأم وحضنها، أم لعله اشتياق إلى راحة القبر وسكونه؟

وقد انقدح في ذهنه ذات يوم تفسير لسر تعلقـــه بـــالعود، فلعله، وإن كان ينطق اسمها بالطريقة المتوردة، إلا أن قلبه الذي لم تتغلغل الورادة إليها كان ينطقها "عُوض"، فلعل العود يذكره بالحاج عَوَض، ولعل داخله الدفين مؤمن بما فعله الحاج وعلـــى ملته، وإن تنكر له جوارحه. عجيب الحاج عوض الشهيد، رأى بفطرته أن الناس التبست عليهم الروضة والجنة، ونسوا أن هذه الحياة مهما توردت، هي في النهاية دنيا وإلى الأرض نهايتها.

وفي يوم من الأيام، وأحمض جالس في بيته يتأمل، وزوجتـــه تعد الطعام وابنته تلعب بعروس صنعه لها أبوها مـــن القمـــاش وأعواد الحطب، طرق الباب طارق، ففتحت له فاطمة البـــاب ثم نادت، "تعالى يا أبتي، هناك من يريدك." ذهب أحمض فوجد

ثلاثة رجال، بيض الوجـــوه، وردي الثيـــاب، ويلبـــسون في أرجلهم النعال.

"أهلا وسهلا بالزوار، تفضلوا."

رد أصغرهم بعنفوان الشباب وطاقته: "جئنا نخرجكم مـــن خشونة الأرض إلى وَرَادَة الرِياض، ومن وَضَاعَة الأرْيَـــضَة إلى رُقِي الريادة!"

فرجع أحمض خطوة إلى الخلف، ثم نظر إلى زوجته وهـــي تعد الطعام، ونظر إلى ابنته وقد عادت تلعب بعرائسها؛ نظر إلى روضته... ثم نظر إلى العود.

تمت بحمد الله رواية (الروضة)

وتليها (الربوة).

